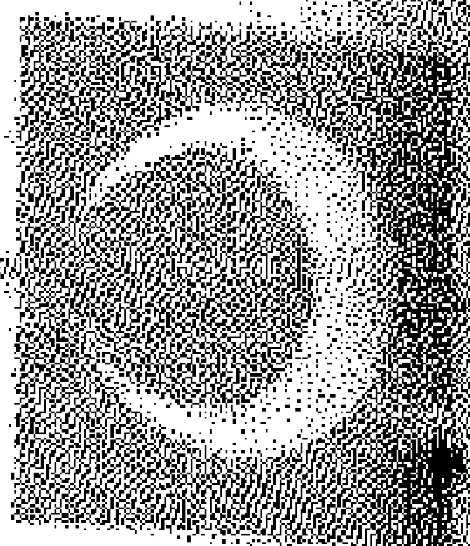
كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

ساعات مع الأحرار

أحمد قاسم جودة

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعى

رئيس التحرير : صالح جودت

المشرف الفنى : جمال قطب

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٢٥٨ - جمادى الاولى ١٣٩٢ يوليه ١٩٧٢

No. 258 — Juillet 1972

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادي البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ - فى سائر انحاء العالم ٥ر٥ دولارات امريكية او ٢ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية - والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل عند الطلب على الاسعار المحددة

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة
الفنان جمال قطب

أحمد قاسم جودة

ساعات مع الأحرار

دار الهلال

محمد عبده



أردت أن أفضى معه ساعات معدودة ، فاذا بصحبتي له تمتد أياما متعاقبة قرات خلالهـا من آثار قلمه ، ومن آيات عظمته وصدق وطنيته ما كاد يعدل بى عن الـكتابة عنه فى هذه السلسلة من الاحاديث عن مشاهير الاحرار .. فان تاريخ حياته ليزخر بالاحداث الجسام ، ويحشد بألوان الجهاد الشاق ، ويفيض بمختلف نواحي النشاط ، الى الحد الذى خشيت معه أن أظلم هـذا البطل الحر المجاهد الخالد ، باقتضاب سيرته وأعماله فى نطاق الحيز المقدر لهذه الفصول .

ولـكنى خشيت أن أظلم الرجل مرتين اذا عدلت عن هذا الحديث : مرة باغفال اسمه من عداد الاحرار الذين تشملهم هذه الفصول ، ومرة اخرى بتعمد هذا الاغفال فى الظروف الحاضرة بوجه خاص ، وهى الظروف التى حققت لشعب مصر أكثر من أمنية طالمـا طافت برأس المصلح العظيم محمـد عبده ، وفى مقـدمتها تصحيح تاريخ محمد على وأسرته ، وتخليص مصر من ويلات طغيانهم القديم والحديث . وسـيرى القراء هنا كيف بلغت شجاعة الشيخ محمد عبده حد التنديد بتـاريخ محمد على ، وانكار فضله المزعوم على هذه البلاد . ولم يكن ذلك سوى قطرة من خضم كتابات الاستاذ الامام أو اصلاحاته وأحاديثه وسائر أعماله ونواحى نشاطه .

ولد « محمد عبده » فى أواخر سنة ١٨٤٩ ، بقرية « محلة نصر » بمركز شبراخيت ، من اب متوسط الحال ، يدعى « عبده خير الله » ، كان يقرى الضيف ويؤوى الغريب ويفخر باكرام النزيل ، وام كانت منزلتها بين نساء القرية لا تقل عن مكانة والده ، وكانت ترحم المساكين وتعطف على الضعفاء ...

وقد بدأ فتعلم القراءة والكتابة فى منزل والده ثم انتقل الى دار حافظ قرآن قرا عليه وحده جميع القرآن أول مرة ، ثم أعاد القراءة حتى حفظه جميعه بعد سنتين ، وارسله أبوه بعد ذلك الى الجامع الاحمدى بطنطا فانتابته صدمة نفسية قاسية ، اذ فوجىء باصطلاحات نحوية أو فقهية لم يفهم منها شيئا ، ولم يلبث أن هرب من الدرس وعبثا حاول أخوه اعادته للجامع الاحمدى اذ قال له :

ــ لقد أيقنت أن لا نجاح لى فى طلب العلم ، ولم يبق على الا أن أعود الى بلدى واشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من اقاربى ..

وقد كتب الشيخ محمد عبده يقول عن هذا الحادث :

« فهذا أول أثر وجدته فى نفسى من طريقة التعليم »
« فى طنطا وهى بعينها طريقته فى الازهر ، وهو الاثر »
« الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لايساعدهم »
« القدر بصحبة من لايلتزمون هذا السبيل فى التعليم »
« سبيل القاء المعلم ما يعرفه أو ما لايعرفه بدون أن »
« يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم .. غير أن »
« الاغلب من الطلبة الذين لا يفهمون ، تغشهم »
« انفسهم فيظنون انهم فهموا شيئا فيستمرون على »
« الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال وهم فى احلام »
« الاطفال ثم يبتلى بهم الناس ، وتصاب بهم العامة »

« فتعظم بهم الرزية لانهم يزيدون الجاهل جهالة ، »
« ويضللون من توجد عنـده داعية الاسترشـاد ، »
« ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ؛ »
« ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه .. »

وبعد أن أقام الشيخ محمـد عبده فى القرية بضعة اسابيع ارغمه ابوه على أن يعود الى الجامع الاحمدى ، وأرسله على فرس مع أحد اقاربه الاشداء ليرافقه الى محطة ايتاى البارود حيث يركب القطار الى طنطا ، ولـكن الحر كان لافحا فى ذلك اليوم فأصر الفتى على أن يعرج فى الطريق على قرية بها بعض أقارب والدته وهى قرية « كنيسة أورين » وهناك بقى خمسة عشر يوما « تحولت فيها حالتى وبدلت فيها رغبة غير رغبتى » على حد تعبيره .

ذلك انه التقى هناك بخال له يدعى الشيخ درويش خضر ، وهو رجل متصوف واسع الافق استطاع من اللحظة الاولى أن يمحو من ذهن الفتى النافر من العلم أثر الصدمة الاولى ، وأن يدخل فى روعه الفهم الصحيح للاسلام وأساليب التعليم الاسلامى المثمر ، ففى اليوم السابع سأل الشيخ :

ــ ما هى طريقتكم ؟

فأجابه :

ــ طريقتنا الاسلام ..

فقال :

ــ أو ليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟ ..

قال :

ــ لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الامر ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب ، وبغير سبب ..

ويصف الشيخ محمد عبده وقع هذه المناقشة البسيطة قائلا :

« هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندى من المتاع القديم ـ متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الغرور بأنا مسلمون ناجحون وان كنا فى غمرة ساهين .. »

« ولم تمض على بضعة أيام الا وقد رايتنى اطير بنفسي فى عالم آخر غير الذى كنت أعهد .. ولم يبق لى الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة ، كامل ادب النفس ، ولم أجد اماما يرشدنى الى ما وجهت اليه نفسى الا ذلك الشيخ الذى آخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد الى اطلاق التوحيد .. »

وذهب الفتى الى طنطا بعد الايام الحاسمة فى توجيه حياته ، ولكنه لم يلبث أن أحس الهاما يسوقه الى طلب العلم فى مصر ، فالتحق بالجامع الازهر ، وكان اذا عاد فى آخر السنة الدراسية الى « محلة نصر » أقام بها شهرين ، وهناك يكون قد سبقه الشيخ درويش فما يزال يراجع الدروس ويستزيده من العلم حتى يغرى الفتى بدراسة المنطق والحساب والهندسة فى غير الازهر ..

ولم يكد محمد عبده يتم عامه العشرين حتى سمع بمقدم المصلح الثائر الداعية العظيم السيد جمال الدين الافغانى ، وكان ذلك سنة ١٨٦٩ فذهب لزيارته مع أستاذه فى المنطق الشيخ حسن الطويل ، واستمع الى أحاديثه الخلابة فى التصوف والتفسير ، وكانت هذه الزيارة بداية أخطر مرحلة فى تاريخ محمد عبده ، اذ أصبح يلازم السيد الافغانى ملازمة الظل ، ويقبل على

دروسه فى الفلسفة والاخلاق والسياسة والرياضيات فى شغف بالغ وقد انعكس هذا كله فى صورة مقالات راح محمد عبده يكتبها فى بعض الصحف داعيا الى الاصلاح وتحرير الافكار من التقاليد البالية التى كانت مسيطرة على العقلية الازهرية اذ ذاك • ولم يكن غريبا ازاء هذه النزعة المتحررة ، أن يجر محمد عبده على نفسه نقمة المتزمتين ، والا يظفر بشهادة العالمية سنة ١٨٧٧ ، الا بعد ارهاق شديد من غالبية الممتحنين ، والا تمنح له الا من « الدرجة الثانية » .. ولم يقدر لهذا الاجحاف العلمى أن يصحح الا فى سنة ١٩٠٤ ، أى قبل موت الامام بعام واحد، اذ أرسلت اليه مشيخة الازهر قرارا من مجلس ادارته يتضمن نقله الى الدرجة الاولى ..

واشتغل الشيخ محمد عبده عقب حصوله على العالمية بالتدريس فى الازهر ثم ألحق بمدرسة دار العلوم سنة ١٨٧٨ مدرسا للتاريخ حيث شرع يلقى محاضرات على طلبته فى مقدمة « ابن خلدون » لاول مرة فى مصر ، ويسهب فى الحديث عن أسباب تقدم الامم وتدهورها ويحلل النظريات الاجتماعية والتاريخية التى ضمنها « ابن خلدون » مقدمته المشهورة ..

ولكن الاحداث السياسية لم تلبث أن نزعت الشيخ محمد عبده من مكانه فى التدريس ، كما طوحت بأستاذه وصديقه السيد جمال الدين الافغانى الى منفاه ، اذ غدر بهما الخديو توفيق بعد اتصالهما به للمطالبة بالاصلاحات الدستورية التى كان قد وعدهما بها قبل أن يرغم أبوه اسماعيل على التنازل عن العرش ، واقتنع توفيق بوشاية الذين أفهموه ان السيد وتلميذه ، انما يسعيان لتقييد سلطانه فأمر بنفى الأول وتحديد اقامة

الثانى بقرية « محلة نصر » ..

وعاد رياض باشا ، رئيس الوزارة المصرية اذ ذاك من رحلة فى الخارج فعلم بما حدث لصديقه جمال الدين الافغانى وتلميذه وسعى حتى حصل على عفو عن الشيخ محمد عبده سنة ١٨٨٠ ، ولكنه لم يستطع أن يقنع الخديو بالغاء أمره بنفى السيد جمال الدين الافغانى من مصر ..

واصدر رياض باشا أمرا بالحاق الشيخ محمد عبده « محررا ثالثا » بجريدة الوقائع الرسمية ، وطلب منه أن يضع تقريرا بما يقترحه لاصلاح حالها ، وعلى أساس هذا التقرير وضعت لائحة المطبوعات وعين الشيخ محمد عبده « محررا أول » للوقائع ، فاختار لمعاونته فيها نفرا من تلاميذ السيد جمال الدين الافغانى ، كان من بينهم الشيخ سعد زغلول وكان يومئذ « مجاورا » بالازهر فى الحادية والعشرين من عمره ..

وليس أدل على ما كان يتمتع به الشيخ محمد عبده من شخصية قوية وما كان يمتلىء به صدره من رغبة حازمة فى الاصلاح ، من انه جعل من عمله فى تحرير « الوقائع المصرية » رقيبا وحسيبا على أعمال الوزارات وتصرفات الموظفين ، اذ ان اللائحة التى وضع قواعدها كانت تحتم على جميع مصالح الحكومة ان تخطر قلم المطبوعات بأعمالها وأحكامها ومشروعاتها ، وكان لرئيس تحرير « الوقائع » حق المراقبة على جميع الصحف المصرية ومعاقبتها حتى بالتعطيل الدائم ، بل ان الشيخ محمدعبده ذهب الى حد انذار احدى الصحف بالتعطيل اذا لم تعين فى فترة محدودة محررا بارعا يصحح عبارتها ، فسارعت الجريدة بتنفيذ أمره ، ومن هنا صار الشيخ محمد عبده كالمسيطر على أعمال الحكومة

والمربى للأمة كما وصفه المرحوم حسن باشا عاصم ، وكان من اثر انتقاده للحكومة انشاء مجلس اعلى للمعارف عين هو أحد أعضائه .

وليس ذلك فحسب ، بل ان الشيخ محمد عبده قد استطاع من مكتبه « بالوقائع المصرية » أن يسير على راس أول قافلة للاصلاح الاجتماعى الحديث ، وقد عبر عن ذلك بقوله : « تنبهت الافكار ، وبدات الحياة الاجتماعية تدب فى جسم امة فرقها الظلم وأماتها الجور ، وانبعثت النفوس تطلب ما شعرت به من حاجتها ، فتألفت بعض الجمعيات الخيرية اسلامية وقبطية ، لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية وأولادهم بالتربية ، ولم يكن يسمع بمثل ذلك فى مصر من قبل » .

واندلع لهيب الثورة العرابية ، ولم يكن الشيخ محمد عبده يقف فى أول الامر الى جانب عرابى واصحابه فلما وقع الخلاف بين شريف باشا والعرابيين حول الميزانية والموقف الدستورى بشأنها ظل الامام ملتزما جانب التهدئة والنصح بالاعتدال ، حتى اذا بدت للعيان مناورات الانجليز للقضاء على ما كسبته الامة من حقوق دستورية تغير موقف محمد عبده وأصبح هو « الروح المدبرة للحركة » على حد تعبير اللورد كرومر ، وكان هو الذى وضع صيغة اليمين التى أقسمها الوزراء والضباط بثكنات عابدين بأنه « اذا حصلت حرب يكونون يدا واحدة فى الدفاع عن البلاد » وعندما ضرب الاسطول الانجليزى مدينة الاسكندرية بقنابله أخذ الامام يكتب المقالات الحماسية فى «الوقائع المصرية» ويدعو المصريين للتطوع فى صفوف الجيش وجمع التبرعات والامدادات له ..

وتطورت حوادث الثورة العرابية على النحو المعروف

وحوكم عرابى وزملاؤه فى أواخر سنة ١٨٨٢ فحكم عليهم بالنفى الى جزيرة سيلان ، بينما حكم على الشيخ محمد عبده بالنفى ثلاث سنوات فى البلاد السورية . وقد امضى العام الأول منها هناك ، ثم دعاه أستاذه السيد جمال الدين الافغانى فوافاه الى باريس حيث أصدرا مجلة « العروة الوثقى » وجعلا هدفها المدافعة عن حقوق الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ، وتنبيه بعض الغافلين منهم لما فيه خيرهم . ولكن سلطات الاستعمار البريطانية ضيقت عليها الخناق فلم تعش سوى بضعة أشهر وصدر آخر أعدادها فى ١٨ أكتوبر سنة ١٨٨٤ .

وفى خلال هذه الفترة سافر الشيخ محمد عبده الى لندن موفدا من قبل جمعية العروة الوثقى « ليستكشف مناصب الفخاخ السياسية ، ويسبر غور المطامع الانجليزية » . كما قال السيد جمال الدين الافغانى . وهناك اجتمع الشيخ محمد عبده بكثيرين من الصحفيين واعضاء البرلمان الانجليزى ، ونزل فى ضيافة صديق مصر وصديق العرابيين الكبير ولفردسكاون بلنت .

وفى هذه الزيارة أدلى الشيخ محمد عبده بحديث لجريدة « البول مول جازيت » هاجم فيه الاستعمار البريطانى ، وطالب بجلاء الانجليز عن مصر ، كما هاجم الخديو توفيق أعنف هجوم . وقال حين سئل عن السياسة التى يجب أن تسير عليها بريطانيا فى مصر :

« ان كل انجليزى لقيناه يؤكد لنا أنه يريد الخير لمصر ، ولكن أين هم رجال السياسة عندكم الذين حاولوا تأييد تصريحاتهم وتأكيداتهم ؟ اننا معشر المصريين من أرباب حزب الحرية ، كنا نظن ان الانجليز يناصرون قضية الحرية ولكننا لم نعد نعتقد بمثل هذه الظنون ، فان الحقائق أقوى وأبلغ من الكلام . اننا

نرى ان انتصاركم للحرية انما هو انتصار لما فيه مصلحتكم ، وان عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل لقد قضيتم على عناصر الخير فينا ، لكى يكون لكم من ذلك حجة للبقاء فى بلادنا .. »

فلما حاول الصحفى الانجليزى أن ينفى ذلك مدعيا ان غلادستون ووزراءه يريدون الجلاء فى أول فرصة صاح به :

« اذا كان الامر كذلك فلم لا تغادرون بلادنا فى الحال ، لقد علمنا الانجليز شيئا واحدا ، هو التضامن فى رغبتنا أن نراكم ترحلون عن بلادنا . لقد تطاحنا حقا واردنا ان نحطم استبداد حكامنا .. شكونا من الاتراك لانهم اجانب عن وطننا ورغبنا لبلادنا اصلاحا سياسيا وتقدما يشبه تقدم أوربا فى طريق الحرية ، لكننا الان نعلم ان هناك ما هو شر من استبداد الحكام ، وشر من ظلم الاتراك وليس فى مصر من بلغ به الظلم حدا يرجو معه مساعدتكم . ان لنا اليكم رجاء واحدا ــ هو أن تغادروا بلادنا حالا من غير رجعة » ..

وتحدث محمد عبده عن توفيق فقال (وانا أنقل هنا نص الترجمة التى جاءت فى كتاب الدكتور عثمان أمين) :

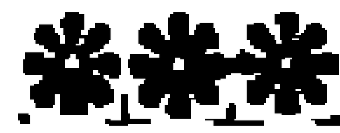
« توفيق باشا أساء الينا أبلغ السوء ، لانه مهد لدخولكم بلادنا . ورجل مثله انضم الى اعدائنا أيام الحرب لا يمكننا أن نشعر ازاءه بأدنى احترام ، لكنه اذا ندم على ما فرط منه واذا عمل على الخلاص منكم فربما غفرنا له سوءاته .

اننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية »

ولعل أخطر ما جاء فى هذا الحديث اقتراحه عزل الخديو وتعيين حاكم جديد فى مصر « ينبغى على كل حال أن يختار من الرجال المحبوبين من الشعب المصرى

وأن يكون تعيينه لمدة محدودة ، نحو سبع أو ثماني سنين ، وفى نهاية تلك المدة يحق للشعب ان يختار بنفسه من يحكمه » ..

وواضح من هذا الحديث ان الامام المجاهد الحر كان يشير الى انهاء حكم أسرة محمد على ، واتخاذ نظام « جمهورى » يمكن الشعب من اختيار حاكمه بنفسه . وهو ما لم يتحقق الا بعد نحو نصف قرن من وفاة المصلح العظيم ، وعلى يد ثورة مصر الاخيرة ..



وقد عاد الشيخ محمد عبده بعد ذلك الى بيروت سنة ١٨٨٥ ، ودعى للتدريس فى المدرسة السلطانية ، ولكنه اشتغل فى الوقت نفسه بالتأليف ونشر المقالات فى الصحف ، وترجمة رسالة « الرد على الدهريين » للسيد جمال الدين الافغانى من الفارسية الى العربية.

ثم عاد الامام الى وطنه فعين قاضيا بالمحاكم الاهلية ثم أصبح مستشارا بمحكمة الاستئناف ، وفى هذه الفترة بدأ يتعلم الفرنسية فأتقنها واستكمل اتقانها نطقا وحديثا فى رحلاته الصيفية الى فرنسا وسويسرا.

وفى ٣ يونيو سنة ١٨٩٩ ، عين مفتيا للديار المصرية ، وعين فى الشهر نفسه عضوا بمجلس شورى القوانين. وفى سنة ١٨٩٢ أسس مع نفر من أصدقائه الجمعية الخيرية الاسلامية وانتخب لرئاستها سنة ١٩٠٠ ، وكان خلال ذلك أيضا من أكبر الدعاة لانشاء الجامعة المصرية .

وفى كل هذه المناصب والحركات استطاع الشيخ محمد عبده أن يحدث ثورة اصلاحية ما زال صداها يتردد حتى اليوم .

وقد توفى الاستاذ الامام بداء سرطان الكبد فى ١١

يوليو سنة ١٩٠٥ ، وهو بعد فى السادسة والخمسين من العمر . ولولا هــذا الداء الخبيث لاستطاع تاريخ مصر أن يسجل صــفحات أخرى حافلة بآيات التحرر والتقدم فى طريق الدنيا والدين .

ونود رغم ضيق المجال أن نختم هذا الحديث برأيه فى رأس الاسرة المالكة السابقة « محمد على » وهــو راى لم يهمس به همسا ، وانما سجله فى مقال نشر فى مجلة « المنار » بعددها الصادر فى ٧ يونية سنة ١٩٠٢، بمناسبة الاحتفال بمرور مائة سنة على قيــام أسرة محمد على .

وفى هذا المقال يتحدث الامام عن محمد على وظروف دخوله مصر وما فعله بها وبأهلها فيقول : « انه اخــذ يرفع الاسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ، ورثه عن أصــله الــكريم .. حتى انحط الــكرام وساد اللئام ، ولم يبق فى البــلاد الا آلات له يستعملها فى جبــاية الاموال ، وجمع العســاكر بأية طريقة ، وعلى أى وجه ، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من راى وعزيمة واستقلال نفس ، لتصير البلاد المصرية جميعها اقطاعا واحدا له ولاولاده .. »

ويقول فى ختام مقاله :

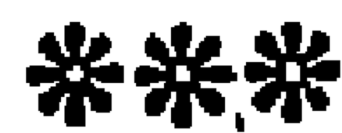
« ولا اظن ان أحدا يرتاب بعد عرض تاريخ محمد على على بصيرته ان هذا الرجل كان لمصر قاهرا ، ولحياتها الحقيقية معدما ، وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره » ..

ليت الامام المصلح الحر عاش حتى يرى كيف انتقمت مصر لــكرامتها وحريتها ، وطوحت بأسرة ذلك الطاغية الى الهاوية التى استحقتها منذ أمد بعيد ..

والى المهتمين نص هذا المقال النابض بالقوة والشجاعة

والبلاغة ودقة التحليل ، والاعتزاز بالوطن وكرامة المواطنين .

وأعود فأذكر القراء بأن هذا المقال الذى يشرف صناعة القلم ويعلى أقدار الاحرار ، قد كتب فى عهد حفيد محمد على ، الخديو توفيق وان الامام الحر العظيم الشيخ محمد عبده قد اختار لنشره ـ امعانا فى السخرية من رأس الاسرة العلوية ـ احدى المناسبات التاريخية ، وهى الاحتفال بالذكرى المئوية لولايته حكم مصر .. وقد وافقت هذه الذكرى يوم ٧ يونية سنة ١٩٠٢ .. أى قبل أن تمحوها ثورة مصر من الوجود بخمسين عاما من الزمان .



قال الاستاذ الامام :

« لغط الناس هذه الايام فى محمد على وما له من الآثار فى مصر وأهلها واكثرت الجرائد من الخوض فى ذلك ، والله أعلم ماذا بعث المادح على الاطراء ، وماذا حمل القادح على الهجاء ، غير انه لم يبحث باحث فى حالة مصر التى وجدها عليها محمد على وما كانت تصير بالبلاد اليه لو بقيت ، وما نشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد محمد على . أذكر الآن شيئا فى ذلك ينتفع به من عساه ينتفع ، ويندفع به من الوهم ما ربما يندفع .

« كانت حكومة البلاد المصرية قبل دخول الجيش الفرنسي فيها من أنواع الحكومات التى تسمى فى اصطلاح الغربيين حكومات الاشراف ، وتسمى فى عرف المصريين حكومات الالتزام ، وتعرف عند الخاصة بحكومات الاقطاع . وأساس هذا النوع من الحكومات تقسيم البلاد بين جماعة من الامراء ، يملك كل أمير

منهم قسما يتصرف فى أرضه ، وقوى ساكنيها ، وأبدانهم ، وأموالهم ، كما يريد، فهو حاكمهم السياسى والادارى والقضائى ، وسيدهم المالك لرقابهم ، ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الاثرة وتغلظ فيه اصول الاستبداد وفروعه ، وتنزع نفس كل أمير الى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على ما فى يد جاره من الامراء . فكان من مقتضى الطبيعة ان كل أمير لاينفك عن التدبير والتفكر فيما تعظم فيه شوكته ، وما يدفع به عن حوزته ، وأن يكون الجميع دائما فى استعداد : اما للوثوب واما للدفاع . ولكن الامراء فى مجموعهم كانوا يقاومون سلطة الملوك ، فيضطر الملك لاستمالتهم ومحاباة بعضهم ، للاستعانة به على البعض الآخر ، فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم .

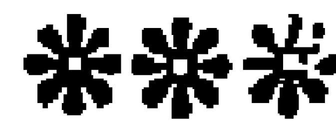


« حاجة الامراء الى المال كانت تسوقهم الى ظلم رعاياهم ، وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم الى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم ، ظهر ذلك فى خصوماتهم المرة بعد المرة ، فاضطر الامراء أن يخففوا من ظلمهم ، وأن يتخذوا من الاهلين انصارا يضبطونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم » .

« أحس الاهلون بحاجة الامراء اليهم فزادوا فى الدالة على الامراء ، واضطروهم الى قبول مطالبهم ، فعظمت قوة الارادة عند أولئك الذين كانوا عبيدا بمقتضى الحكومة ، وانتهى بهم الامر أن قيدوا الامراء والملوك معا ، ولم يكن ذلك فى يوم أو عام ، ولكنه كان فى عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة .

«نعم كانت الحكومة فى مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات الشرقية ، وكانت البلاد متوزعة بين أمراء ،

كل منهم يستغل قسما منها ويتصرف فيه كما يهوى ·
وكان كل يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده الى ما في يد الآخر أو يدفع به صولته ، فالخصام كان دأبهم والحرب كانت أهم عملهم . لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك ما استطاع ليعد منهم جنده ، ولكن كانت تعوزه مئونتهم اذا كثروا فاضطروا الى اتخاذ أعوان من أهالى البلاد ، فوجدوا من العرب أحزابا كما وجدوا منهم خصوما . ثم رجعوا الى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون اليه ، فاتخذوا بيوتا منها أنصارا لهم عند الحاجة ، وعرف هؤلاء حاجة الامراء اليهم فارتفعوا فى أعينهم وصار لهم من الامر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك . لهذا كنت ترى فى البلاد المصرية بيوتا كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم ·



« لذلك كان يقضى على كل أمير من أولئك الامراء أن يصرف زمنه فى التدبير ، واستجلاب النصير ، واعداد ما يستطيع من قوة لحفظ ما فى يده ، والتمكن من اخضاع غيره . أنصاره من الاهالى كانوا يجارونه فى ذلك خوفا من تعدى أعوان خصمه عليهم ، فوقعت القسمة بين الاهالى ·

« جاء الجيش الفرنسي والبلاد فى هذه الحالة ، دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها. احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها . لم تكن الا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق ، وعظمت حوله القلاقل · أخذت القوة الحيوية الكامنة فى البلاد تظهر ، فكثرت الفتن ولم تنقطع الحروب والمناقشات ، ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال. يدلك على ذلك شكوى نابليون نفسه فى تقاريره التى كان

يرسلها الى حكومة الجمهورية من اصطياد العربان لعساكره من كل طريق . وسلبهم أرواحهم بكل سبيل. واضطر نابليون أن يسير فى حكومة البلاد بمشورة أهلها، وانتخب من أعيانها من يشركه فى الرأى لتدبيرها ، طوعا لحكم الطبيعة التى وجدها .

***

« قتل بعض رؤساء الجيش واضطربت عليه البلاد وجاء الجيش العثمانى وعاونه الجيش الانجليزى ، وخرجت عساكر الفرنسيين من مصر ، ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد على بالوسائل التى هيأها له القدر . ما الذى كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها ؟ كانت تنتظر أن يشرق نور مدنية يضىء لرؤساء الاحزاب طريقهم فى سيرهم لبلوغ آمالهم ، وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التى كان يقصدها فى بلاد غير بلاده . وما كان بينهم وبين ذلك الا أن يختلطوا بأهل البلاد الغربية ، ويرتفع الحجاب الذى أسدله الجهل دونهم . أو كانت تنتظر أن يأتى أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضها الى بعض ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها ، ويأخذ فى تقوية مصباح العلم بينها ، حتى ترتقى بحكم التدريج الطبيعى ، وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الاولى .

« ما الذى صنع محمد على ؟ لم يستطع أن يحيى ولكن استطاع أن يميت. كان معظم قوة الجيش معه ، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الاحزاب على اعدام كل رأس من خصومه ، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه ،

وهكذا حتى اذا سحقت الاحزاب القوية ، وجه عنايته الى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها راسا يستتر فيه ضمير « أنا » واتخذ من المحافظة على الامن سبيلا لجمع السلاح من الاهلين وتكرر ذلك منه مرارا حتى فسد بأس الاهالى، وزالت ملكة الشجاعة منهم وأجهز على مابقى فى البلاد من حياة فى أنفس بعض أفرادها ، فلم يبق فى البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه ، أو نفاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه .



« أخذ يرفع الاسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم ، حتى انحط الكرام ، وساد اللئام ، ولم يبق فى البلاد الا آلات له يستعملها فى جباية الاموال ، وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أى وجه ، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأى وعزيمة واستقلال نفس ، ليصير البلاد المصرية جميعها اقطاعا واحدا له ولاولاده ، على اثر اقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة

« ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشرأبت نفسه لان يكون ملكا غير تابع للسلطان العثمانى ، فجعل من العدة لذلك ان يستعين بالاجانب من الاوربيين ، فأوسع لهم فى المجاملة وزاد لهم فى الامتياز خارجا عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية ، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكا من الملوك فى بلادنا يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل . وصغرت نفوس الاهالى بين أيدى الاجانب بقوة الحاكم ، وتمتع الاجنبى بحقوق الوطنى التى حرم منها وانقلب الوطنى غريبا فى داره ، غير مطمئن فى قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة ، وذل

سامهم الاجنبى اياه ليصل الى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة .

« قالوا انه أطلع نجم العلم فى سماء البلاد . نعم عني بالطب لاجل الجيش والكشف على المجنى عليهم فى بعض الاحيان عندما يراد ايقاع الظلم بمتهم . وبالهندسة لاجل الرى حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير ليستغل اقطاعه الكبير !

***

« هل تفكر يوما فى اصلاح اللغة : عربية ، أوتركية ، أو أرنؤوطية ؟ هل تفكر فى بناء التربية على قاعدة من الدين أو الادب ؟ هل خطر فى باله أن يجعل للأهالى رايا فى الحكومة فى عاصمة البلاد أو أمهات الاقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقل العدل ؟ لم يكن شىء من ذلك بل كان رجال الحكومة اما من الارنؤوط ، أو الشراكسة ، أو الارمن الموارليه ، وما أشبه هذه الاوشاب ، وهم الذين يسميهم بعض الاحداث من أنصار اليوم دخلاء . وكانوا يحكمون بما يهوون لايرجعون الى شريعة ولا قانون . وانما يبتغون مرضاة الامير ، صاحب الاقطاع الكبير .

« أين البيوت المصرية التى أقيمت فى عهده على قواعد التربية الحسنة ؟ أين البيوت المصرية التى كانت لها القدم السابقة فى ادارة حكومته أو سياسة جندها ، مع كثرة ما كان فى مصر من البيوت الرفيعة العماد الثابتة الاوتاد ؟

« أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوربا ليتعلموا فيها ، فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا فى البلاد ما استفادوه ؟ كلا ، ولكنه استعملهم آلات تصنع له ما يريد

وليس لها ارادة فيما تصنع . وجد بعض الاطباء المتازين وهم قليل ووجد بعض المهندسين الماهرين وهم ليسوا بكثير ، والسبب في ذلك ان محمد على ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن احد من الاعوان مسلطا على المهندس عند رسم ما يلزم من الاعمال ، ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج ، فظهر أثر استقلال الارادة في الصناعة عند أولئك النفر القليل من النابغين ، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين .



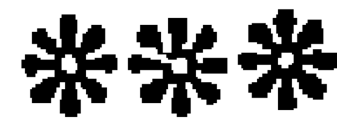
« هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية ؟ اين هي وأين الذين نبغوا من طلابها ؟ فان وجد أحد نابغ ، فهل هو من المصريين ؟ عدوا ان شئتم أحياء أو أمواتا !

« أوجد كثيراً من الكتب المترجمة في فنون شتى من التاريخ والفلسفة والآداب ، ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت واغلقت عليها الابواب الى أواخر عهد اسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها ، وتخفيف ثقلها عنها ، فنشرتها بين الناس فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على أنها ترجمة برغبة بعض الرؤساء من الاوروبيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد ، لكنهم لم ينجحوا لان حكومة محمد على لم توجد في البلاد قراء ، ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون .

« كانوا يختطفون تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرى « الأفناء : الناس المجهولون» كما يتخطفون عساكر الجيش ، فهل هذا مما يحبب القوم في العلم ويرغبهم في ارسال أولادهم الى المدارس ؟ لا ، بل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش .

« حمل الاهالى على الزراعة ولـكن ليـأخذ الفلات ولذلك كانوا يهربون من ملك الاطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الاصفر والموت الاحمـر ، وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك .

« يقولون انه أنشأ المعامل والمصانع ، ولكن هل حبب الى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها فى البـلاد ؟ أين هم ؟ ومن كانوا ؟ وأين آثارهم ؟ لا ، بل بغض الى المصريين العمـل والصنعة بتسخيرهم فى العمـل والاستبداد بثمرته . فكانوا يتربصون يوما لايعاقبون فيه على هجر العمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعنين الساعة التى جاءت بهم اليه .



« يقولون انه أنشأ جيشا كبيرا فتح به الممالك ودوخ به الملوك وأنشأ أسطولا ضخما تثقل به ظهور البحار ، وتفتخر به مصر على سائر الامصار ، فهل علم المصريين حب التجند ، وأنشأ فيهم الرغبة فى الفتح والغلب ، وحبب اليهم الخدمة فى الجندية وعلمهم الافتخار بها ، لا ، بل علمهم الهروب منها ، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون الى الموت ، بعد أن كانوا ينتظمون فى أحزاب الامراء ، ويحازبون ولايبالون بالموت أيام حكم المماليك ، وكان من ينتظم فى الجندية على عهد محرر مصر لايخرج منها الا بالموت ! هل شعر مصرى بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه ؟ وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك اليه بأن يقول هـذا جيشى وأسطولى أو جيش بلدى أو أسطوله ؟ كلا لم يكن شىء من ذلك فقد كان المصرى يعد ذلك الجيش وتلك القوة

عونا لظالمه فهى قوة خصـــمه . كذلك كان يعدها كل عثمانى فى مصر أو غير مصر. ليقل لنا انصار الاستبداد كم كان فى الجيش من المصريين الذين بلغــوا فى رتب الجندية الى رتبة البكباشى على الاقل ؟ فما أثر ذلك فى حياة مصر والمصريين الا أسوأ الاثر ، أثر كله شر فى شر، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت .

« ظهر الاثر العظيم عندما جاء الانجليز لاخماد ثورة عرابى . دخل الانجليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر على قوم ثم استقروا ولم توجد فى البلاد نخوة فى رأس تثبت لهم ان فى البلاد من يحامى عن استقلالها ، وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنسيين الى مصر ، وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الاولى والموت الاخير ، وجهله الاحداث فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون اليه .

***

« لايستحى بعض الاحداث من ان يقولوا أن محمد على جعل من جدران سلطانه بنية من الدين . أى دين كان دعامة لسلطان محمد على ؟ دين التحصـــيل ؟ دين الكرباج ؟ دين من لا دين له الا ما يهواه ويريده ؟ والا فليقل لنا أحد الناس أى عمــل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الاسلامى الجليل ؟ لايذكرون له الا مسالة الوهابية . وأهل الدين يعلمون أن الاغارة فيها كانت على الدين لا للدين . نعم ان فى الوهابية غلوا فى بعض المسائل ، غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين ، وما كان محمد على يفهم هذا ولا ســفك دماءهم لارجاعهم الى الاعتدال ، وانما كانت مســالة سياسية محضة نبعها جراة محمد على على سلطانه العثمانى وكان معه ما كان مما هو معروف .

« نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشىء

من النقد يسمى « فائض رزمانة » لايساوى جزءا من الالف من ايرادها . وأخــذ من أوقاف الجامع الازهر ما لو بقى له اليوم لــكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه فى السنة وقرر له بدل ذلك ما يساوى نحو أربعة آلاف جنيه فى السنة .

« وقصـــارى أمره فى الدين أنه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو اجلاسهم على الموائد ٠٠ لينفى من يريد منهم اذا اقتضت الحال ذلك ، وأفاضل العلماء كانوا عليه فى سخط ماتوا عليه .

***

ولا اظن أن أحدا يرتاب بعد عرض تاريخ محمد على على بصيرته ، ان هذا الرجل كان تاجرا زراعيا ، وجنديا باسلا ومستبدا ماهرا ، لكنه كان لمصر قاهرا ولحياتها الحقيقية معدما ٠٠ وكل ما تراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره ، متعنا الله بخيره وحمانا من شره ، والسلام ٠٠ !

ديفاليرا



إني أواجه
الأمور بالاستقامة
على الدوام
لأنني رجل
مستقيم .

ديفاليرا

يا لها من سخرية ، ويا لها من عبرة . (١)

ان الرجل الذى قاد بلاده الى النصر فى معركة الكفاح ضد الاستعمار .. هو بعينه الرجل الذى خسر معركة الانتخاب ، من بضعة أعوام لانه لم يستطع الانتصار فى حرب الاسعار ..

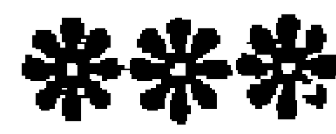
فقد سجلت النتائج التى أسفرت عنهـا الانتخابات الارلندية العامة لمجلس الدامايل ، أى مجلس النواب ، خذلان حزب الاحرار « الفياناقيل » الذى يراسه الزعيم العظيم ايمون ديفاليرا ، وعجزه عن استبقاء الاغلبية المطلقة على مجموع الاحزاب الاخرى ، وهى حزب « فين جايل » أى حزب المحافظين وحزب العمال ، وحزب الفلاحين مضافا اليهم النواب المستقلون .

وازاء هـذه النتيجة اضطر ديفاليرا الى التخلى عن رئاسة الوزارة ، ليحل محله فيها رجل آخر يؤلف وزارة ائتلافية ، تجمع شمل الاحزاب المعارضة ، وتنال تأييد المستقلين .

ولم تكن هذه أول مرة يخرج فيها ديفاليرا من الحكم ، منذ تولاه سنة ١٩٣٢ ، اذ ان الاحزاب المؤتلفة سبق ان فازت على حزبه سنة ١٩٤٨ ، وظلت تتولى شئون الحكم الى سنة ١٩٥١ .

(١) كتب هذا الفصل عام ١٩٥٤

ولـكن ماذا يهم بقـاء ديفاليرا فى الحكم أو خروجه منه ؟ ان التاريخ لن يتحدث عن ديفاليرا رئيس الوزارة الايرلندية ، ولكنه تحدث كثيرا وسيظل يتحدث طويـلا عن ديفاليرا الثائر الجبار ، الاسبانى الاب ، الايرلندى الام ، الامريكى المولد ، الذى لم يدخر جهـدا ، ولم يضن بتضحية ، ولم يترك سـلاحا شريفا الا شـهره واسـتخدمه فأحسن استخدامه ، حتى طهـر جبـين ايرلنده من وصمة الاستعمار البريطانى .



ولد « ايمون ديفاليرا » بمدينة نيويورك فى ١٤ أكتوبر سنة ١٨٨٢ ــ فهو يدلف الآن نحو ختام عامه الثانى والسبعين ــ أما والداه فهما أب مهاجر أسبانى ، وأم مهاجرة ايضا من ايرلندة ، ولم ينجبا ولدا سواه ، ثم توفى الاب بعد عامين من زواجه ، وتزوجت الام فيما بعد وأصبحت تحمل اسم « مسز هويلرايت » وأنجبت ولدين آخرين مات أحدهما وأصبح الثانى قسيسا .

أما ايمون فقد انقطعت صلته بأمه منذ عاد من أمريكا الى آيرلنده فى الثالثة من عمره ليعيش فى كفالة خاله باتريك كول . وقد عرف ديفاليرا منذ حداثة سـنه كتلميذ بالجد والاجتهاد ، وقوة الذاكرة ، والمثابرة ، ولـكنه لم يتخصص مع ذلك فى الادب أو التاريخ ، بل كان شديد الولع بالعلوم الطبيعية والرياضـية ، وقد حصل على مجانية التفوق فى السادسة عشر من عمره ، والتحق بكلية بلاكروك فى العاصـمة الارلندية سـنة ١٨٩٨ ، واشتغل فى الوقت نفسه بالتدريس ، وحصل على الدبلوم فى الرياضة فى الثانية والعشرين من‌عمره ، وعين أستاذا للحساب فى كلية لتخريج المعلمات . ولكنه لم يقتصر على التدريس فى كلية واحدة بل اشتغل فى

وقت واحد بالتدريس فى عدة مدارس وكليات ، ولم يشتغل بتدريس الرياضة فقط ، بل كان مدرسا للرياضة هنا ، وللهندسة هناك ، وللغة الارلندية فى مدرسة ثالثة، وقد تزوج سنة ١٩١٠، باحدى تلميذاته فى اللغة الارلندية وهى جانيت فلاناجان ، ولم يكن فى هذه المراحل كلها ما يشير الى طريق المجد الذى كان مقدرا لديفاليرا أن يبدأ السير فيه سنة ١٩١٣ ، عندما بادر الى الانضمام لفرق المتطوعين التى استطاع «الاخوان الجمهوريون» أن يسيطروا عليها سرا لمكافحة الاستعمار البريطانى . وقد وصفه أحد مؤرخيه يومئذ بالعبارات التالية :

« كان ديفاليرا حتى اندلاع الحرب العظمى فى
« اغسطس سنة ١٩١٤ ، شخصا مجهولا تماما
« للرأى العام حتى فى دبلن ، فيما عدا طلبة الكلية
« التى يدرس فيها ، وكان مظهره يلفت النظر الى
« أقصى حد . فهو طويل مسرف فى الطول ، يتجاوز
« ستة أقدام ، وكان الجد الصارم يرتسم على وجهه
« رغم انه فى أوائل العقد الرابع من العمر ، وكان
« طويل الانف ، يضع نظارات على عينيه ، وتبدو
« على ملامحه مسحة أجنبية ظاهرة ، وكان يمتاز
« كذلك بملابسه الخشنة البسيطة » .

هكذا كان ديفاليرا يوم وضع قدمه لاول مرة فى ميدان السياسة — أستغفر الله — بل ميدان الكفاح الوطنى الصادق ، الذى أضاف به ديفاليرا الى تاريخ الاحرار صفحات نقية عاطرة ..

ولكن « عطر » هذه الصفحات ، لم يكن خاليا من رائحة الدماء التى طالما خضب الاحرار بها أبواب الحرية الحمراء ، دمائهم ودماء الطغاة على حد سواء .

لقد بدأ ديفاليرا يخوض غمار السياسة ، منذ التحق بفرق المتطوعين الارلندية ، وكانت خطة الوطنيين قد رسمت وبدأت تنفذ ببراعة نادرة المثال ، اذ أنهم حرصوا من بداية الامر على أن يدربوا أنفسهم تدريبا عسكريا ممتازا فى الخفاء ، حتى اذا تم لهم ذلك سعوا ونجحوا فى استصدار أمر من القيادة العامة الرسمية للمتطوعين — وهى بريطانيا — بأن يكون اختيار الضباط متوقفا على الكفاءة وحدها ، فكانت نتيجة ذلك أن تمت « للاخوان الجمهوريين » السيطرة على فرق المتطوعين بوصفهم ضباطا فى هذه الفرق .

ولم يكد يمضى عامان ونصف عام على تأليف كتائب المتطوعين حتى قرر الاحرار أن يضربوا ضربتهم التى صمموا على تسديدها للاستعمار البريطانى قبل أن تضع الحرب العالمية أوزارها ، وحددوا للثورة يوم عيد الفصح الذى يوافق ٢٣ أبريل سنة ١٩١٦ . وكانت الذخيرة قد بدأت تتسرب الى مخابئهم السرية من ألمانيا ومن أمريكا ويشاء القدر الساخر أن تكشف المخابرات البريطانية عمليات التهريب قبل الحركة بشهرين ، ولكنها لأمر ما لم تبلغ ذلك الى القاعدة العامة للقوات الايرلندية ، ولا للقيادة المدنية فى دبلن ، ولعلها كانت تشك فى جدية الحركة . ومع ذلك فان الحوادث لم تلبث أن تعاقبت فى سرعة خاطفة ، ففى يوم الجمعة الحزينة أى قبل تاريخ الثورة بيومين قبض على السير روجو كيزمنت عقب هبوطه على الساحل البريطانى من غواصة المانية ، « وقد حوكم واعدمه الانجليز بعد ذلك بتهمة الخيانة العظمى » ، واغرقت السفينة الالمانية «أودت» التى اعترضها الاسطول البريطانى وهى تحمل أسلحة الى أحرار أرلندة ، وقد نسفها بحارتها الالمان

بالديناميت بعد أن هبطوا الى زوارق النجاة ، ثم سلموا أنفسهم .

وكانت هذه الاحداث سببا فى تصميم القيادة العليا للثورة على تنفيذ حركة التمرد العسكرى فى دبلن دون سائر أنحاء البلاد ، وفى الموعد الذى سبق تحديده وهو ٢٣ أبريل سنة ١٩١٦ ، وهو يوم عيد الفصح . وكان بعض الثوار يرون غير ذلك ، ومن بينهم ديفاليرا ولكنه لم يكد يتلقى الامر بالثورة حتى بادر بالتنفيذ .

ولم يكن عدد الثوار يومئذ يتجاوز ألفا وخمسمائة نفس . أى انهم كانوا حفنة صغيرة اذا قيست بالقوات الاستعمارية الضخمة التى قاموا لمحاربتها بحد السلاح. وهى اللغة الوحيدة التى ثبت أنها تصلح للتعامل مع أى استعمار ، ولا سيما الاستعمار البريطانى الخبيث .

وتفرق الثوار . كل جماعة فى المكان الذى حدد لها ، واستولوا بالفعل على هذه الاماكن بلا مقاومة. واتخذوا المقر العام لمصلحة البريد مركزا لقيادتهم . وسرعان ما الصقوا على الحائط منشورا مطبوعا بحروف ضخمة سوداء ، يحمل اعلانا بقيام «الحكومة المؤقتة للجمهورية الارلندية » وقرأ المارة الاعلان بين ضاحك ساخر ، ومشفق يائس ، ولكن الجو لم يلبث أن امتلأ بالكهرباء ، وطارت الاشاعات فى كل ركن من أركان العاصمة ، واخذ الجد يرتسم على الوجوه ، ولا سيما حين دوى على حين غرة دوى الرصاص وشاهد أهل دبلن كيف اقيمت المتاريس فى الشوارع ، ووضعت أكياس الرمل فى النوافذ ، وحفرت الخنادق ، وما زالت الطلقات تدوى وتئز فى جو المدينة الرهيب حتى جن الليل فانعدمت الحركة ، وساد الصمت ، ولم يكن يقطعه سوى طلقات القناصة بين الفينة والفينة .

وكان ديفاليرا يتولى فى هذه المعركة التاريخيةحراسة طريق السكك الحديدية الى دبلن ، ليمنع وصول المدد من انجلترا ، وسرعان ما أصبحت هـذه المنطقة مركز العاصفة ، ولم تكن قوة ديفاليرا كلها تزيد على مائة جندى فىالمنطقة ، ولكنه استعان بحيلة ماكرة «لتهويش» الجيش الانجليزى والتفرير به ، وذلك بأن أوعز الى كثيرين من أهل المنطقة بأن يتظاهروا بالرغبة فى مصادقه الجنـــود الانجليز ، ويسروا اليهم بأنه ـ اى ديفاليرا ـ قد وضع خطة لجلب مدد كبير من الثوار تحت ســتار الظلام ، وأنه قد أعد لهم أماكن فى معمل للتقطير ، كان ديفاليرا قد رفع فوقه علم الثورة المثلث الالوان عاليا فى وجه المستعمرين .. وراح الانجليز يصوبون طلقات مدافعهم صوب المعمل فدمروه ودمروا معه قدرا كبيرا من ذخيرتهم .. بينما كانت قوات ديفاليرا تتجمع فى مخبز مجاور لمعمل التقطير لم تتجه اليه أنظار الانجليز لانشغالهم بضرب هذا المعمل .

وفى هذه المعركة يروى الثوار الذين كانوا تحت قيادة ديفاليرا كيف كان يقف بين جنوده ، يتقدم صـفوفهم ويتحرك تحت خط النار معهم ويصر على أن يتولى أخطر المهام فى القتال رغم اعتراض جنوده وخوفهم على حياته ، فلما قال له أحد الجنود ان حياته أهم من حياة الجندى العادى صاح به : « ان هناك آخرين خيرا منى يقتلون فى هذه المعركة » .

ودامت معركة الاحرار ضد الاستعمار فى هذه المرة نحو أسبوع كامل ، كافح طواله الثوار كفاح الجبابرة ضد قوات طاغية باغية تفوقهم عددا وعدة ، ثم صدر الامر اليهم من قائدهم « بيرس » بالتسليم وقد تلا ديفاليرا نص الامر فى أسى وألم بالغين ، وقد جاء فيه:

« لـكى نضع حدا لذبح أهل دبلن ، وأملا فى انقاذ
« حيـاة اتباعنا الـذين حوصروا وتحيط بهم الآن
« قوات تفوقهم عددا على نحو يدعو الى اليأس ،
« فقد قرر أعضاء الحكومة المؤقتة المجتمعون بمقر
« القيادة أن يقبلوا التسليم بلا قيد ولا شرط ، وعلى
« قومندانات المناطق المختلفة فى المدينة والبلاد أن
« يأمروا فرقهم بوضع السلاح » ..

وقد كان من العسير على ديفاليرا أن يقنع جنوده باطاعة هذا الامر ، ولكنه لم يكن يملك الا أن يطيعه وينزل على مقتضاه ، فوقف فى الشارع ينتظر ان تحضر قوات الاستعمار لتعتقله هو وجنوده وراح يردد والالم يمزق نفسه : « آه لو أن الشعب خرج ليقاتل معنا ولو بالسكاكين والاشواك » .

وقد انقضى على عيد الفصح التاريخى الذى نشبت فيه أول معركة ضد الاستعمار البريطانى أكثر من ثمانية وثلاثين عاما ، وما زال حتى اليوم خالدا فى التاريخ الارلندى ، بل فى تاريخ الكفاح العالمى ضد الاستعمار. وما زالت تصدق فيه كلمة « بيرس » المشهورة فى بيانه اذا هم لم يكسبوا هذه المعركة ، فانهم على الاقل قد كانوا جديرين بكسبها ، ولكنهم سيكسبونها على كل حال ، ولو بالممات .. وهم قد كسبوا فعلا شيئا عظيما ، اذ طهروا دبلن من عار كثير وجعلوا اسمها رائعا مجيدا بين عواصم العالم .

وقد حافظ الانجليز بعد تسليم الثوار على أشهر تقاليدهم .. اذ انقضوا على المجاهدين الاشراف المستسلمين يسومونهم القتل والانتقام • ففى ٣ مايو اعدموا ثلاثة من قواد الثورة بينهم « بيرس » رميا بالرصاص وفى اليوم التالى قتلوا بالرصاص ثلاثة آخرين

وفى اليوم الثالث قتلوا واحدا وبعد يومين قتلوا أربعة وفى اليوم التالى قتلوا شقيق أحد هؤلاء الاربعة .

ولم يكن بد من أن يتحرك ضمير العالم أمام هـذا التوحش الدنىء ، ضد أناس كل جريمتهم انهم ضاقوا باحتلال بلادهم فثاروا زغم قلتهم واستسلموا بعد اعلان قضيتهم ..

وكان من أنبل الصرخات التى انطلقت يومئذ صرخة « برنارد شو » اذ كتب يقول فى قلب لندن ، وفى ابان الحرب العالمية سنة ١٩١٦ :

« اننى مازلت ارلنديا ، واننى لأرفض أى اشـارة
« يفهم منها اننى أرمى بالخيانة أى ارلندى اشتبك
« مع الحكومة البريطانية فى قتال من أجل استقلال
« ارلندة وقد كان قتالا شريفا فى كل شىء سوى
« الغلبة العددية الهائلة التى كان على أبناء وطنى
« أن يواجهوها .

ولكن الوحشية البريطانية بقيت على جنونها فى التنكيل بالاحرار الامجاد فلم يكد يحل يوم ١٠ مايو حتى كان قد أعدم أربعة عشر وحكم بالاشغال الشاقة على ثلاثة وسبعين ، وحكم بالنفى على أكثر من ألف . وفى ١٢ مايو أخذوا الزعيم العالمى « كونولى » الذى كان برأس الجيش المدنى ، ووضعوه على نقالة وأعدموه مع أحد زملائه ، وفى أغسطس تمت محاكمة السير رويجز كيزمنت وأعدم فى لندن فبلغ بذلك عدد الشهداء الذين أعدموا ستة عشر ، كما أصبح عدد المنفيين أكثر من الفين وثلاثمائة .

أما ديفاليرا فقد ألقوا به فى حجرة صغيرة تتصل نافذتها بمركز فرقة المطافىء ، وقد أتيحت فرصة الهرب

منها بناء على خطة عرضت عليه فرفض أن يترك زملاءه وقدم للمحكمة العسكرية فى ٨ مايو ، وكاد يلقى مصير زملائه الذين أعدموا لولا أمران :

أولهما : الضجة الشديدة التى أثارتها وحشية الانجليز على يد السفاح مكسويل .

والثانى : تدخل القنصلية الامريكية واحتجاجها باعتبار ديفاليرا أمريكيا بحكم مولده .

وكانت النتيجة صدور الحكم بالنص الآتى فى ١١ مايو سنة ١٩١٦ :

« الحكم بالاعدام ، وتخفيف الحكم الى الاشغال
« الشاقة بأمر القائد العام للقوات.. ادوار ديفاليرا ،
« الاشغال الشاقة مدى الحياة » .

وقد كان ديفاليرا أثناء محاكمته وبعد الحكم عليه مثالا يحتذى فى رباطة الجأش وهدوء النفس . وكان يتوقع حكم الاعدام بما يشبه اليقين . ولكنه لم يكتم عاطفته الانسانية اذ قال لاحد زملائه فى السجن قبل الحكم : « ما كنت لأهتم بمصيرى مثقال ذرة ، لولا الزوجة والاطفال » .

ومع ذلك فانه حين ابلغ بأمر تخفيف حكم الاعدام ؛ لم يفعل أكثر من أن رفع بصره الى محدثه وشكر الرسول الذى أبلغه به ، ثم عاد فاستأنف قراءة الكتاب الذى كان فى يده وهو « اعترافات القديس أوغسطين »

وبقى ديفاليرا فى السجن مع زملائه المحكوم عليهم ، حتى استقال اللورد اسكويت من رئاسة الوزارة البريطانية ، ونقل السفاح الجنرال مكسويل من أرلندة وتولى حكم بريطانيا لويد جورج بقفازه الحريرى، وراح يجرب استرضاء الارلنديين ، فانهالت العرائض بطلب

الافراج عن ديفاليرا وسائر المسجونين السياسيين .

وفى خلال ذلك ثار المسجونون فى سجنهم بقيادة ديفاليرا احتجاجا على سوء معاملتهم ، وطلبوا أن يعاملوا كأسرى الحرب ، وحطموا أثاث السجن ونوافذه ، فكانت النتيجة نقلهم الى سجون متعددة ، حتى أفرج عنهم فى ١٦ يونية سنة ١٩١٧ ، فعادوا من سجونهم فى بريطانيا — وكانوا يبلغون زهاء المائة — واذا بمدينة دبلن تستقبلهم استقبال الابطال الظافرين ، واذا بهم ينشدون مع الالوف الحاشدة « أغنية الجندى » الثورية التى أصبحت فيما بعد نشيد ارلندا القومى .

وهكذا أصبح ديفاليرا — ولا سيما بعد انتخابه نائبا لاحدى الدوائر البرلمانية وهو فى سجنه — زعيم ارلندا الذى تعلقت بزعامته الوطنية الامينة آمال مواطنيه فى تحقيق الاستقلال المنشود .

وقد عرف ديفاليرا مرة أخرى مرارة السجن ، حين انقضت قوات البوليس على اعضاء حزبه « السين فاين » ومعهم ديفاليرا نفسه فى ١٨ مايو سنة ١٩١٨ ، وكانت حجة الانجليز فى ذلك هى وجود «مؤامرة المانية» مزعومة ضد بريطانيا . وجاءت الانتخابات العامة فى ارلندة فى أواخر سنة ١٩١٨ ، فاذا حزب ديفاليرا يفوز بثلاثة وسبعين مقعدا من مائة وستة ، ومن بين هؤلاء الثلاثة والسبعين نائبا ، ثلاثون فى السجون — بينهم ديفاليرا .. وثلاثة منفيون ، وستة مختفون عن عيون البوليس .

وفى يناير سنة ١٩١٩ ، أعلن قيام البرلمان الارلندى المستقل ، وأصدر هذا البرلمان اعلانا باستقلال ارلندة ،

ورسالة الى شعوب العالم الحرة ، وبرنامجا ديمقراطيا للحكم .

وفى فبراير سنة ١٩١٩ ، نجحت محاولات الوطنيين فى تهريب ديفاليرا من سجنه ، ثم تهريبه الى الولايات المتحدة حيث قام بحملة دعاية واسعة لاستقلال ارلندة وجمع تبرعات ضخمة لمساعدة ارلندة فى كفاحها .

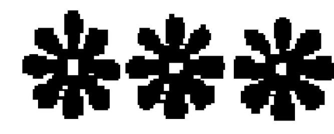
وكماغادر ديفاليرا ارلندة هاربا،عاد اليها خلسة فيعيد الميلاد سنة ١٩٢٠ ، ليستأنف جهاده مع زملائه داخل البلاد . ومازالت حركة الكفاح مستمرة على اشدها ، ضد قوات الاحتلال ، حتى أذعن لويد جورج للأمر الواقع فطلب ارسال وفد الى لندن للبحث عن حل للنزاع ، وتمهيدا لذلك تم الاتفاق فى ١١ يوليو سنة ١٩٢١ ، على اطلاق سراح المعتقلين واعادة الهدوء الى البلاد .

وسافر بالفعل وفد ارلندى الى لندن فى ٩ اكتوبر من العام نفسه ، وهناك راح الانجليز يجربون كل وسائلهم المألوفة فى كل مفاوضة فمن صيغ غامضة ، الى عروض ملتوية ، الى محاولات لشق صفوف الوفد المفاوض ، الى غير ذلك مما عرفناه وبلونا ويلاته نحن المصريين .

ورفض ديفاليرا ورفاقه أن يقبلوا المعاهدة التى استطاع لويد جورج ـ مع الاسف ـ أن يخدع بها رئيس وفد المفاوضة الارلندى وعادت الاضطرابات مرة أخرى الى دبلن، وتكررت مأساة التفوق العددى، ثم الاضطرار للتسليم فى أوائل يولية سنة ١٩٢٢ . ولكن حرب العصابات انتقلت الى أنحاء البلاد ، ومن سوء حظ ارلندة انها لم تكن فى هذه المرة موجهة ضد الاستعمار

وحده ، بل كانت حربا أهلية قتل فيها أرلنديون أبرياء من جراء الخلاف على المعاهدة البريطانية المشئومة .

والقى القبض على ديفاليرا مرة أخرى عقب انتخابه للمجلس النيابى فى الانتخابات العامة التى جرت فى شهر اغسطس سنة ١٩٢٢ واستمر اعتقاله مع ألوف آخرين من زملائه حتى قامت حركة ترمى الى الدعوة للاضراب حتى الموت أو الافراج عن المعتقلين ، ولكن ديفاليرا قاوم هذه الحركة حتى كان شهر يوليو سنة ١٩٢٤ ، حيث فتحت ابواب السجن وأفرجت الحكومة الارلندية التى قبلت المعاهدة عن زعيمها الذى آثر القتال والسجن على قبول المعاهدة .



وظل ديفاليرا ثمانية أعوام يكافح لاقناع الرأى العام ببطلان المعاهدة ، والبرلمان الذى قبل المعاهدة ، والحكومة التى قامت على أساس البرلمان حتى تم له النصر فى الانتخابات العامة سنة ١٩٣٢ .

ولم يلبث ديفاليرا أن تولى رئاسة الحكومة ، وأخطر الحكومة البريطانية بالغاء يمين الولاء للتاج البريطانى ، وبادر الى تعديل الدستور ليجعله جمهوريا لا ملكيا ، وحاولت بريطانيا أن تحارب ديفاليرا بسلاح الضغط الاقتصادى ، فلم يكن حظها من النجاح أكثر من حظها فى هذه المحاولة مع مصر فى السنوات الاخيرة ...

والنصر للحرية ...
والمجد للأحرار ..


جومو كينياتا

« ان الافريقي ليس أعمى • ان في استطاعته ان يهتك الأستار عن أولئك الذين يتظاهرون كذبا بالرحمة والانسانية • وهاهو ذا يستيقظ من سباته فيدرك ان احدا لا يستطيع أن يسد الى الأبد مجرى النهر الدافق دون أن يفيض الماء على جانبيه ويحطم شاطئيه ... لقد حيل بين الافريقي وبين التعبير عن ارادته ولكنه يشق طريقه رغم ذلك وسيجرف أمامه شتى صنوف القهر والطغيان التي تحيط به • »

لم يكن الزعيم الافريقي « جومو كينياتا » حين كتب هذه الكلمات الرهيبة يعد منشورا ثوريا ، أو يلقى خطابا حماسيا فى عشرات الالوف من مواطنيه المجاهدين فى سبيل حريتهم •• وانما ساق هذه الكلمات فى مقدمة كتاب وضعه بالانجليزية ونشر لاول مرة فى لندن سنة ١٩٣٨ تحت عنوان « فى مواجهة جبل كينيا » .

ولو استطاع المستعمرون أن يسيروا مع الزمن ، وأن يتخلصوا من تعصبهم وعنادهم ، لما تعذر عليهم ان يدركوا الحقائق ، وأن يفهموا أن جومو كينياتا بكلمته الصريحة هذه انما كان يدق ناقوس الخطر ، وينذر الاستعمار بأن « يحمل عصاه ويرحل » •

ولكن الاستعمار هو الاستعمار ، لا يتغير ، ولا يتطور ولا يفهم ، ولا يسلم ، حتى تدهمه الاحداث وترغمه على أن ينزل الى القبر الذى يحفره له المجاهدون الاحرار .

لقد اندلع لهيب الثورة فى كينيا ، بعد مضى خمسة عشر عاما على كلمات جومو كينياتا ، ثم استطاع جومو كينياتا أن يهز دعائم الاستعمار المتهاوية من وراء قضبان

السجن ، حيث شاءت « العدالة » البريطانية أن تزج به ، بعد « محاكمة » أشبه بالمسرحيات الهزلية منها بالمحاكمات القضائية. فلما انتهت مدة «الحكم» بالسجن وجاءت ساعة الافراج أبت «عدالة» الاستعمار مرة اخرى الا أن تبقيه معتقلا ، بلا حكم ولا محاكمة !

وأخيرا ، أرغم الاستعمار على اطلاق سراح كينياتا ، وازالة العوائق القانونية المصطنعة لابعاده عن المجلس النيابى ومناصب الحكم . فمن هو جومو كينياتا ؟ ..

وما هى جمعية « الماوماو » التى اتهم برئاستها وتحريضها على الثورة ؟ ..

وما هى قبيلة « الكيكويو » ـ أو على الاصح « الجيكويو » التى تخوض الكفاح الرهيب الحالى ضد وحوش الاستعمار ؟.. وكيف بدات مأساة الاستعمار الاوربى فى كينيا ؟ ..

أما جومو كينياتا فقد جاوز الستين من عمره ، وهو افريقى عريق يعتز بأفريقيته ويفخر بتقاليد قبيلة « الجيكويو » التى يسميها الاوربيون خطأ « كيكويو » والذين يقرأون كتابه الرائع « فى مواجهة جبل كينيا » يدهشون للدقة العجيبة التى يروى بها تفاصيل المعتقدات والتقاليد والعادات السائدة فى قبيلته ، وكثير من هذه التفاصيل يدخل فى دائرة التحقيق العلمى الذى يذهب فى الصراحة الى حد يجعل جانبا غير قليل من مواد الكتاب غير صالح للنشر فى الصحف والمجلات اذ يتناول تقاليد الزواج والخطبة والمشاكل الجنسية بين أفراد القبيلة ، دون أن يعلق عليها بما يشعر انه يعترض على شىء منها ، أو يحس بأى خجل ازاء تعارضها مع التقاليد والاعتبارات السائدة فى معظم دول الغرب والشرق .

وقد كتب كينياتا يصف تعليمه ونشأته فقال : انه تلقى فى صفره ذلك النصيب من التعليم الذى يتلقاه غيره من الاولاد فى قبيلة « جيكويو » ولقنه كبار العائلة جميع التقاليد والعادات الضرورية ، التى راح هو يلقنها بدوره فيما بعد للذين هم أصغر منه كوسيلة لتسليتهم ليلة بعد ليلة . ويستطرد كينياتا قائلا :

« ولما كان أبى وجدى قد تزوج كلاهما عدة زوجات، فقد كان من حظى أن ولدت فى أسرة وفيرة العدد ، ذات درجات متفاوتة من القرابة ، وقد كان حتما على بحكم التقاليد فى قبيلتنا أن أجتاز جميع مراسم الختان مع بقية رفاقى الذين يتفوقون او يتقاربون معى فى السن ولهذا أستطيع أن أتحدث عن هذه المراحل بحكم الخبرة والتجربة . ومع ان الرجال لايشهدون ختان البنات ، فانهم لايجهلون تفصيلاته .. لان كلا من البنات والبنين فى مرحلة الانتقال الى المراهقة يتحدثون عن هذه المسائل فيما بعد بصراحة تامة ، ثم أن عمتى « واكو » كانت تزاول بنفسها عمليات الختان للبنات ، فكنت أثناء زيارة كوخها فى طفولتى التقط كثيرا من تفاصيل هذه العملية من أحاديثها مع غيرها من النساء ..

وقد شاركت رفقائى وأبناء طبقتى فى العمر جميع أنواع نشاطهم ، وانتخبت زعيما لهم ثم قدر لى بحكم المعرفة بأحوال العالم الخارجى أن أقوم بدور بارز فى الحركات التقدمية بين أفراد الجيكويو بوجه عام ، وما زلت أقوم بهذا الدور حتى الآن . وقد أنشأت وتوليت رئاسة تحرير أول جريدة للجيكويو ، وهى جريدة مويجوثيانيا بين سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٠ بوصفى سكرتيرا عاما لجمعية جيكويو المركزية ، وأتاح لى ذلك فرصة الطواف بجميع انحاء بلاد الجيكويو ، والاجتماع بأناس كثيرين

من الـكبار والصغار ، ومناقشتهم فى مختلف المشاكل الثقافية والسياسية والاجتماعية والدينيـة والتعليمية وغيرها . وقد اجتزت مع الزمن ثلاث درجات من مراحل الترقى فى القبيلة ، واستطعت بذلك أن أسهم فى المجالس القروية والمركزية ، وأن أعرف اجراءاتها ومراسمها فى شتى أنحاء البلاد كما اننى بوصفى عضوا فى طبقة المحاربين لم أستطع أن أتمرن عمليا على وسـائل الحرب عنـد الجيكويو فحسب ، بل عشت زمنا فى بلادى «الماساى» حيث كنت على اتصال وثيق بوسائلهم الحربية وعرفت عنها الـكثير ، فضلا عن زياراتى لعدة قبائل أخرى . .

أما عن السحر فقد حضرت جلسـات لممارسته فى دارى وفى غيرها وكان جدى نفسه عرافا وسـاحرا ، وكنت أطوف معه فى بعض الرحلات حاملا حقيبة معداته مكتسبا نوعا من التمرس فى أصول هذا الفن على يديه»

على ان كينياتا لم يقض حيـاته كلها بين القبـائل المحاربة ، ولم يقتصر تعليمه على الاسـلوب البـدائى السائد فى بلاده ، بل سافر الى انجلترا طلبا للعلم . فاذا اقامته بها تمتد عشرين عاما ، حصل خلالها على شهادة من جامعة لندن ، واشتغل هناك حينا بالتدريس كما قام خلال الحرب العالمية الاولى بالقاء محاضرات على رجال الجيش فى أساليب المدفعية المضادة للطائرات .

وعاد عقب انتهاء الحرب الى بلاده حيث عين مترجما بالمحاكم ، ولم يلبث أن انضم فى سنة ١٩٢٢ الى اتحاد شرق أفريقيا ، ولـكن الحكومة البريطانية ألغت هـذا الاتحاد وشتتت أعضاءه ، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح كينياتا سكرتيرا عاما للاتحاد المركزى للجيكويو ، وقد أوفده هذا الاتحاد الى انجلترا لتقديم مذكرة الى الحكومة البريطانية ، متضمنة مطالب أهل البلاد ، كما

انتخبه الجيكويو متحدثا باسمهم أمام عدة لجان رسمية ألفتها الحكومة البريطانية لبحث مشـكلة الاراضى التى انتزعت من أهل البلاد وأعطيت للمستعمرين البيض ، ومنها لجنة « هيلتون يانج » التى ألفت سنة ١٩٢٨ ، واللجنة المشتركة لتوحيد افريقيا الشرقية سنة ١٩٣١، وقد عهد اليه بتقديم مذكرة الى هـذه اللجنة باسم الاتحاد المركزى للجيكويو . وفى سنة ١٩٣٢ حمل لواء الدفاع عن حقوق بلاده فى لندن أمام لجنة « موريس كارتر » وهى التى أذاعت فيما بعد تقريرا عن أراضى كينيا أثار مناقشات عنيفة فى الصحف وفى مجلس العموم البريطانى ، وأسهم كينياتا فى الحملة على هذا التقرير وتفنيده بالحجج الدامغة والبراهين العلمية القاطعة .

ولم تكن انجلترا هى البلد الوحيد الذى تزود كينياتا من معين ثقافته ، بل كان يستكمل وعيه السياسى فى شتى بلاد أوربا ، وقد قال أثناء محاكمته الصورية انه زار بلجيكا وهولندا وسويسرا وفرنسا وبولندة واستونيا وبلغاريا والدانمارك والسـويد والنرويج .. ثم قطب وجهه وصاح متهكما على النائب العام :

« اننى أعرف الام تهـدف .. وماذا تريد منى أن أقول .. أجل وقد زرت روسيا أيضا .. ولست أجد فى ذلك جرما أو خطيئة .. ! »

وقد صدق كينياتا فيما قال ، فانه ذهب فعلا الى روسيا مرتين ، ودرس فى جامعة موسكو زهاء سنتين ، ولـكن أحدا لايستطيع أن يرميه بالشيوعية ، وان كان الاستعمار قد اسـتباح لنفسـه كالعادة أن يخلط بين الوطنية والشيوعية ليبرر تصرفاته الوحشية فى محاربة الوطنيين .

وقد تزوج كينياتا فى بريطانيا سيدة بيضاء وأنجب

منها ولدا ، ثم عاد الى وطنه سنة ١٩٤٦ ، فاذا السلطة الغاشمة قد حلت اتحاد جيكويو واعتبرته جمعية ثورية خارجة على القانون ، ولكن ذلك لم يثبط من عزيمة المجاهد الحر كينياتا ، ولم يصرف عنه مئات الالوف من مواطنيه المجاهدين تحت لوائه ، بل زادهم وزاده تفانيا فى سبيل التحرر من نير الاستعمار .. وكان من حسن الحظ أن المستعمرين فقدوا أعصابهم حين اشتدت عليهم وطأة الحركة الوطنية فى كينيا فانتهزوا فرصة وقوع بعض حوادث العنف ، وألقوا القبض على كينياتا وقدموه الى محكمة بريطانية لم تجرؤ على ان تعقد جلساتها فى مدينة نيروبى نفسها خوفا من الوطنيين ، بل انتقلت الى مدرسة نائية تقع على ارتفاع سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر ، وتحيط بها المدافع البريطانية من كل جانب ، بينما كانت السيارات المصفحة تجوب الطرقات وتحرس المنافذ المؤدية الى مكان انعقاد المحكمة مخافة أن يهجم عليها أعوانه لاختطافه ..

ومن طريف ماجاء فى مرافعة ممثل السلطة المستعمرة ضد كينياتا انه يشجع أعمال الارهاب التى تقوم بها عصابة « ماو ماو » الارهابية ، وانه هو الذى أصدر تعليماته الى أعضاء العصابة بالالتجاء للعمل الارهابى فى الخفاء . وقد رد كينياتا بانكار هذه التهمة وقال : انه جمع ثلاثين ألفا من أنصاره ، وأعلن استنكاره لاعمال الارهاب ، وصب لعنته على الارهابيين بقوله : « فلتختف ماو ماو تحت جذور شجرة الميكونكو ، وليمح أثرها من هذا العالم » .

فرد المدعى العام قائلا :

« ان هذه العبارة التى قالها كينياتا ليست لعنة ، فانه لا توجد شجرة تسمى الميكونكو ، وانما هى شجرة

وهمية تتردد فى أساطير الجيكويو فلا معنى لعبارة كينياتا الا أن تكون دعوة الى عصابة ماو ماو للاختفاء والعمل السرى ؟ » وقال المدعى انه منذ أطلق كينياتا دعوته هذه لم تنقطع حوادث القتل والحريق والهجوم على مزارع البيض .

وبعد أن استمرت المحاكمة سبعة وخمسين يوما ، أعلن القاضى الاستعمارى انه قد تبين بعد الاطلاع على التحقيق وبعد الاستماع الى المرافعات ان جوموكينياتا قد اشترك فعلا فى طقوس القسم الدموى التى تقيمها جماعة ماو ماو ، ويتعاهد أفرادها خلالها على التضافر والتعاون لطرد البيض من كينياتا ، وانه نظم بنفسه بعض هذه الطقوس ، ولهذا حكمت عليه المحكمة بالسجن عشر سنوات مع الاشغال الشاقة ، ثلاث سنوات منها لعضويته في جماعة ماو ماو ، وسبع سنوات لاشرافه على هذه الجماعة .

وما كان للعدالة الاستعمارية البريطانية التى رأينا نماذج منها فى دنشواى وفى قلب القاهرة أثناء الثورات المصرية الماضية ، الا ان يكون هذا حكمها على زعيم وطنى حر مثل جومو كينياتا ، رغم علم القاضى الاستعمارى ، وعلم السلطات الحاكمة الغاشمة فى نيروبى وفى لندن ، أن الماو ماو خرافة لا أكثر ولا أقل . وقد سئل حاكم كينيا نفسه ذات مرة عن ماو ماو ، فقال :

ــ ماو ماو .. اننى لا أعرف شيئا بهذا الاسم .

وعندما ذهب صحفى انجليزى يدعى رالف تشامبيون لمقابلة كينياتا فى احدى الغابات قبيل اعتقاله سأله :

ــ هل تعتقد ان جماعة ماو ماو قادرة على تحقيق أهدافك ؟ ..

فكان جواب كينياتا ضحكة من ضحكاته الرهيبة الساخرة ، ثم قال :

ــ ماو ماو .. هكذا أنتم دائما تخيفون أنفسكم بأنفسكم .. ان ماو ماو هذه خرافة ياسيدى .. فكينيا كلها جماعة واحدة ثائرة ، وستظل كذلك ..

وكأنما رآها كينياتا فرصة سانحة لالقاء القفاز مرة أخرى فى وجه المستعمرين ، فاستطرد يقول للصحفى الانجليزى نفسه :

« اننا لا نريد أن نطرد الرجل الابيض ، ولكننا نريده أن يبقى معنا كمواطن وزميل .. فنحن لا نقبل أن يعيش هو مترفها بينما نموت نحن من الجوع.. أو أن يرفل هو فى الثياب الفاخرة بينما نكتسى نحن بالخرق البالية وجلود الحيوانات .. هذه هى رسالتى ياسيدى وهدفها بصراحة ، وبالرغم من كل محاولاتكم ، هو أن تحكم كينيا نفسها بنفسها ، وأن نكون السيادة فى أرض السود للسود ، وللسود وحدهم » .

وبعد ، فلعل خير ختام لهذا الحديث عن الزعيم الحر العظيم جومو كينياتا ، هو أن ننقل عنه أسطورة رواها فى كتابه الممتع ، تصويرا لعلاقة الجيكويو بالمستعمرين الاوروبيين . وهذه هى الاسطورة كما يتناقلها أهل جيكويو :

« حدث فى قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان ، أن فيلا عقد أواصر الصداقة مع انسان . وهبت ذات يوم عاصفة عاتية قاصفة ، فذهب الفيل الى صديقه الانسان الذى كان يملك كوخا صغيرا على أطراف الغابة وقال له :

ــ أى صديقى الانسان العزيز ، هلا سمحت لى أن ادخل خرطومى فى كوخك ، وقاية له من المطر المنهمر؟

ورثى الرجل لحال صديقه ، فأجابه قائلا :

ـ يا عزيزى الفيل ، أن كوخى صغير ، ومع ذلك فانه لاشك يتسع لخرطومك ولى فتفضل بادخال خرطومك فى كوخى برفق ..

فشكر الفيل صديقه الانسان قائلا :

ـ لقد قدمت لى يدا لا أنساها ، وأرجو أن اتمكن من مكافأتك على صنيعك يوما من الايام ..

فماذا حدث بعد ذلك ؟ .. لم يكد الفيل يدس خرطومه فى الكوخ حتى راح يدفع بنفسه فى بطء داخل الكوخ الى أن أخرج الرجل تحت المطر المنهمر ، واستلقى هو لينعم بالراحة داخل كوخ صديقه ، ثم قال له :

ـ أى صديقى العزيز الغالى .. ان جلدك اسمك من جلدى ، ولما كان الكوخ لايتسع لكلينا ، فان فى استطاعتك أن تبقى تحت وابل المطر ، بينما أحمى أنا جلدى الرقيق من زمهرير العاصفة ..

ولما رأى الرجل ما صنعه صديقه الفيل ، أخذ يزمجر ويتضجر ، فسمعت حيوانات الغابة صوته ، وجاءت تتساءل عن جلية الخبر ، وأحاط الجميع بالرجل وصديقه الفيل وراحوا يستمعون الى المناقشة الحامية الدائرة بينهما ..

وفى وسط الضجيج والعجيج أقبل الاسد مزمجرا ، وصاح صيحة هائلة وهو يقول :

ـ الا تعلمون جميعا أننى ملك الغاب ؟ .. فكيف تجرؤون على تعكير صفو السلام فى مملكتى ؟..

وعندما سمع الفيل ذلك ، تكلم فى صوت وادع حنون ، بوصفه أحد كبار الوزراء فى مملكة الغاب ، فقال :

ـ ياسيدى ومليكى ، ليس هناك تفكير لصفو السلام فى مملكتك وكل ما فى الامر اننى أتناقش فى هدوء مع صديقى حول ملكية الكوخ الصغير الذى ترانى جلالتكم أشغله ! !

ولما كان الملك حريصا على استتباب الامن والسلام فى مملكته ، فقد أجاب بصوت رزين :

ـ اننى آمر وزرائى بتعيين لجنة تحقيق لفحص هذه المسألة وتقديم تقرير عنها ..

والتفت عندئذ الى الرجل قائلا :

ـ لقد أحسنت صنعا باقامة عرى الصداقة مع شعبى .. ولا سيما الفيل الذى هو من وزراء دولتى الاكرمين ، وعليك ألا تضجر أو تتذمر فان كوخك لم يضع منك ، وانما ينبغى أن تنتظر حتى تنعقد لجنتى الامبراطورية ، وستتاح لك الفرصة كاملة لشرح وجهه نظرك ، وأنا واثق أنك ستكون راضيا بنتيجة التحقيق.

وقد سر الرجل بهذه الكلمات الحلوة التى سمعها من ملك الغاب وانتظر الفرصة الموعودة فى براءة مطلقة ، معتقدا بالطبع أن يعاد الكوخ اليه ..

وصدع الفيل بأمر سيده ، وراح يتداول مع بقية زملائه الوزراء فى تشكيل لجنة التحقيق .. فاستقر الراى على أن تتألف اللجنة من :

١ ـ السيد قشطة ٢ ـ السيد جاموس

٣ ـ السيد تمساح ٤ ـ السيد المحترم ثعلب رئيسا

٥ ـ السيد فهد سكرتيرا عاما للجنة .

وعندما اطلع الرجل على أمر تشكيل اللجنة ، أبدى احتجاجه قائلا : ان الضرورة تقضى بأن تضم اللجنة عضوا يمثل وجهة نظره ، وكان الرد عليه انه يطلب المستحيل ، لانه لا يوجد فى محيطه أحد بلغ من التعليم

حدا يمكنه من ادراك قوانين الغـابة المعقدة ، ثم انه ليس هناك داع لتخوفه فان أعضـاء اللجنة جميعـا معروفون بالاستقامة والعدالة .. اذ ان الله قد اختار هؤلاء السادة للعناية بأمر الاجناس التى لم توهب كفايتها من المخالب والانياب .. فعليه اذن أن يطمئن الى أنهم سيبحثون الامر بعناية فائقة ويصدرون حكما لا مطعن عليه .

وجلست اللجنة تستمع الى شهادة الشهود ، ونادت الفيل أولا فحضر مزهوا بنفسه وراح يمسح نابيه بفرع شجرة أعطتـه اياه قرينته الفيـلة المحترمة ، ثم تكلم بصوت وقور فقال :

ــ يا سادة الغاب ، لا حاجة بى الى اضاعة وقتكم الثمين فى رواية قصة لا شك انكم تعرفونها ، وكل ما هنالك اننى كنت على الدوام حريصا على رعاية مصالح أصدقائى ، ويبدو أن هذا الحرص أثار شيئا من سوء التفاهم بينى وبين صديقى هذا ، لقد دعانى لانقاذ كوخه من أن تطيح به احدى العواصف ، ولما كانت العاصفة قد استمدت قوتها من وجود مساحة خالية فى كوخ ، فقد وجدت من الضرورى أن أبادر باستغلال المساحة الخالية بأن أجلس فيها بنفسى ، وهذا واجب لا أشك انكم كنتم تبادرون الى أدائه مثـلى فى ظروف كهـذه الظروف .

وبعد أن استمعت اللجنة الى هذه الشهادة الوافية التى ادلى بها الفيل المحترم، نادت اللجنة السيد الضبع وغيره من كبراء الغابة الذين أيدوا السيد الفيـل بالاجماع . ثم نادت الانسان الذى بدأ يدلى بروايته هو لما حدث ، ولـكن اللجنة قاطعته قائلة :

ــ أيها الانسان العزيز ، نرجو أن تحصر شهادتك فى

الوقائع المتعلقة بالموضوع ، فقد استمعنا بالفعل الى ما حدث من أفواه شهود محايدين ، وما عليك الا ان تجيبنا عما اذا كانت المساحة الخالية فى كوخك قد استغلها أحد قبل السيد الفيل أم لا ؟ ..

فبدأ الانسان يقول :

ـ كلا ، ولكن ..

وعند هذه الكلمة أعلنت اللجنة انها قد استمعت الى الشهادات اللازمة من كلا الطرفين ، ثم اختلت للمداولة ..

وبعد أن تناولت اللجنة طعاما شهيا على مائدة السيد الفيل ، أعلنت قرارها ، وهذا نصه :

« ان هذا النزاع فى نظرنا قد نشأ عن سوء تفاهم يرجع الى تأخر آرائك ، ونحن نرى ان السيد الفيل قد أدى واجبه المقدس بأن دافع عن مصلحتك . ولما كان من الواضح انه من مصلحتك أنت أن تستغل المساحة الخالية ، ولما كنت لم تصل بعد الى مرحلة التوسع التى تتيح لك ذلك ، فقد رأينا من الضرورى أن نقترح حلا وسطا يرضى كلا الطرفين، وهو أن يستمر السيد الفيل فى احتلال كوخك ، ولكننا نأذن لك أن تبحث عن مكان آخر تستطيع ان تقيم فيه كوخا يفى بحاجاتك ، ونحن نتعهد عندئذ بالمحافظة عليك .. »

ولما كان الانسان مغلوبا على أمره ، فضلا عن خوفه من التعرض لمخالب أعضاء اللجنة وانيابهم ، فقد نفذ ما طلب منه . ولكنه لم يكد يبنى كوخا آخر حتى هجم عليه السيد وحيد القرن وامره باخلائه ، فعينت لجنة ملكية أخرى لبحث الموضوع وانتهت الى نفس القرار .. وتكرر الامر مرة بعد أخرى حتى استقر كل

من السيد جاموس والسيد فهد والسيد الضبع فى كوخ جديد .

وهنا قرر الرجل أن عليه أن يسلك طريقا أجدى ما دام قد فقد الامل فى انجاح التحقيق فجلس وأخذ يتمتم قائلا :

« ما من دابة على الارض يستحيل صيدها » . وبعبارة أخرى ، انك تستطيع أن تخدع الناس بعض الوقت ، ولكنك لا تستطيع أن تخدعهم الى الابد !

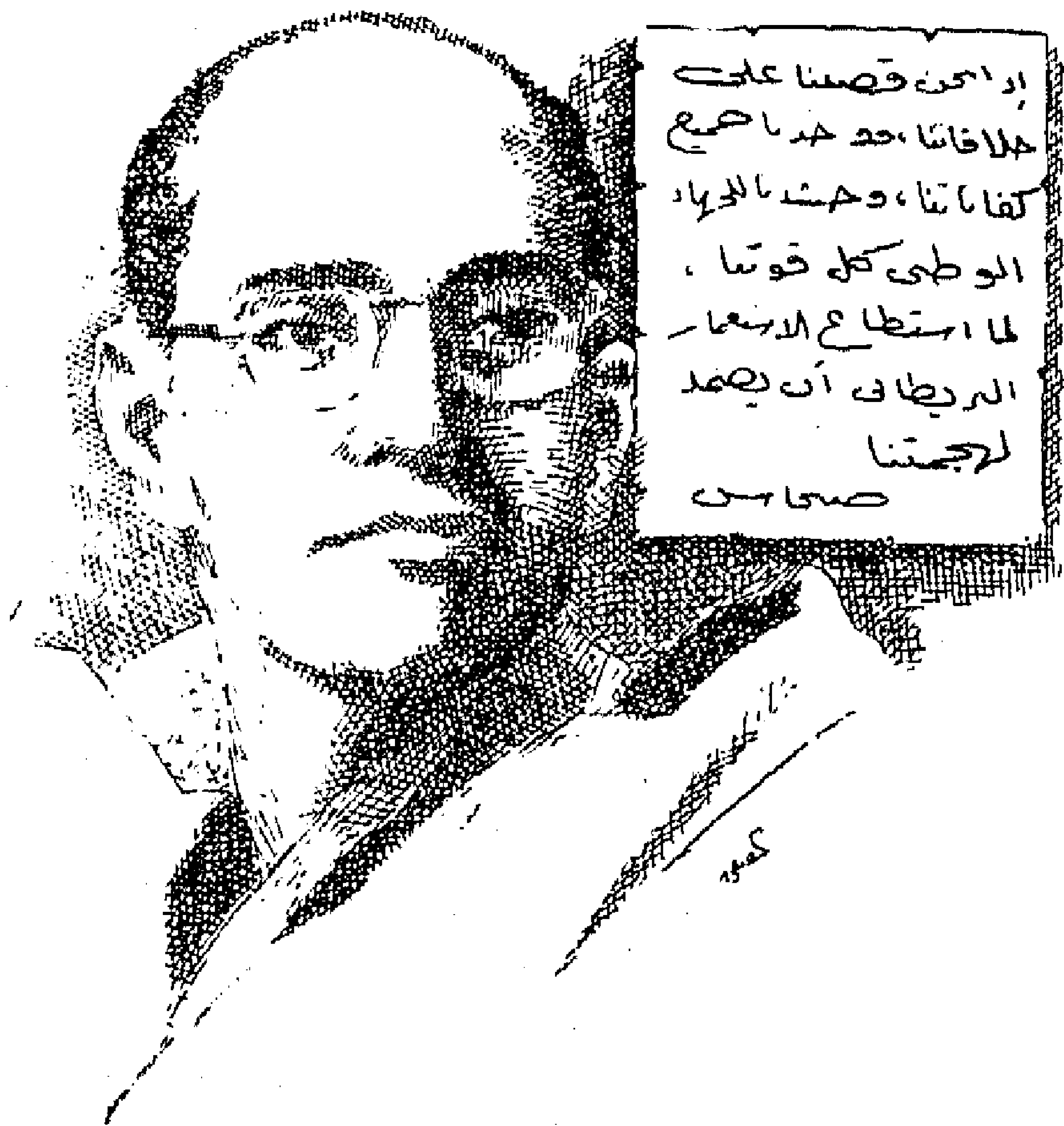
وطلع الصبح ذات يوم ، وكانت أكواخ سادة الغاب قد بدأت تتآكل وتتداعى ، فخرج الانسان وبنى كوخا أكبر وأفخم ، ولكنه يبعد قليلا عن بقية الاكواخ ، وما كاد السيد وحيد القرن يراه حتى سارع فاقتحمه ليجد السيد الفيل قد سبقه ، واستغرق فى نوم عميق، وأقبل السيد الفهد فقفز من النافذة ، ثم جاء السيد الاسد والسيد الثعلب والسيد الجاموس فدخلوا من الباب ، بينما راح السيد الضبع يعوى طالبا مكانا فى الظل ، فى حين صعد السيد التمساح الى سطح الكوخ واستلقى عليه ، ولم يلبث الجميع أن اشتبكوا فى مناقشة حامية حول حق الفتح والغزو وتطور الكلام الى خصام فعراك ..

وبينما المعركة على أشدها ، أقبل الرجل فأشعل النار فى الكوخ وأحرقه على محتليه .. ثم عاد أدراجه قائلا :

— ما أغلى ما يتكلفه السلام ، ولكن ما أجدره بالثمن ..

وعاش الرجل بعد ذلك مرتاح البال ناعما بأحسن حال ..

صبهاس تشندرابوز



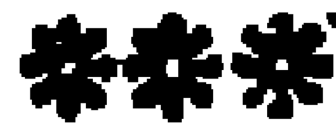
لا أظن بين القـــراء عدداً كبيرا يعرف هذا الزعيم ، او يحفظ شيئا يذكر عن صفحات جهاده واستشهاده فى المعركة الشاقة الطويلة التى خاضتها الهند ضـد الاستعمار البريطانى ..

ولكن صـورة صبحاس تشـاندرابوز تحتل مكانا بارزا فى ملايين البيوت الهندية الى جانب صورة غاندى وخليفته نهرو ، رغم المسـافة الشاسـعة التى كانت تفصل بينه وبينهما فى أساليب الجهاد ، اذ كانت دعوة غاندى قائمة على السلبية وعدم العنف ، بينما كانت دعوة بوز قائمة على مقاومة الاستعمار البريطانى بالمنطق الوحيد الذى يحسب حسابه وهو منطق القوة المسلحة ومواجهة العنف بالعنف .

والشر ان تلقه بالخير ضقت به
ذرعا ، وان تلقه بالشر .. ينحسم !

وقد رأيت صبحاس بوز فى « تريبورى » بالهند فى شهر مارس سنة ١٩٣٩ يغالب المرض الذى أوشك أن يفتك به ، ولكنه لم يستطع ان يقعـده عن الـذهاب محمولا على ناقلة الى مكان انعقـاد المؤتمر الوطنى الهندى ، ليخوض معركة انتخابه مرة اخرى لرئاسـة حزب المؤتمر ، وقد نجح بالفعل متحديا مرشح غاندى

نفسه .. فلما عدت الى الهند بعد عشر سنوات كانت قد انقضت أربع سنوات على مصرعه فى حادث طائرة يابانية ، فكانت قوة القــدر القاهرة وحدها هى القوة التى عجز عن تحديها بعد حيــاة حافلة بتحدى المرض وتحدى الاستعمار وتحدى زعيمه غاندى نفسه فى أوج سلطانه ! !



ولد صبحاس بوز فى ٢٣ يناير سنة ١٨٩٧ ، بمدينة صغيرة قرب كلكتا تدعى كاتاك Cattack «وقد أصبحت فى سنة ١٩٣٥ عاصمة ولاية أوريسا » وكان أبوه محاميا على جانب من سعة العيش ، وكانت أمه كذلك من اسرة متوسطة الحال • وكان صبحاس تاسع أطفالهما • ويروى صبحاس فى ترجمة حياته التى لم يمهله القدر حتى يتمها ، أن جو الرهبــة الذى كان يسيطر على العلاقة بينه وبين أبويه كان يبعث فى نفســه شــعورا بالحسد نحو الاطفال الذين تربطهم بآبائهم علاقات من الصداقة التى لاتداخلها رهبة . وهو شعور لايصدر الا عن نفس مرهفة الحس والعاطفة . والى جانب هذه الظاهرة فى طفولته كانت هناك ظاهرة أخرى لعبت دورا هاما فى تطور حياته . وهى ان كثرة اخوته وأخواته ، وكان هو أصغرهم ، جعلته يحس بانه ضئيل الشأن. وقد كان لهذا الاحســاس اثره الفعال ، اذ دفعه الى احســاس آخر بضرورة الجد والـكد ليجعل لنفسه قيمة تؤهله للحاق بالذين سبقوه فى السن والمكانة .

وتعد اسرة بوز من أعرق أسر البنغال وأعظمها شأنا ، وقد درس أبوه الحقوق ثم اشتغل بالمحاماة ، وعين فى سنة ١٩٠٥ نائبا عاما ، وانتخب عضوا بالمجلس التشريعى بالبنغال وانعمت عليه الحكومة بلقب « راى بهادور » ،

وفى سنة ١٩١٧ وقع خلاف بينه وبين قاضى القضاة فاستقال من منصب النائب العام ، وبعد ثلاث عشرة سنة – أى فى سنة ١٩٣٠ – تنازل عن لقبه احتجاجا على سياسة القمع التى اتبعتها الحكومة اذ ذاك . وكان والد بوز شديد الحرص على حضور دورات المؤتمر الوطنى السنوى ، وان لم يكن له نشاط سياسى بارز ، فلما بدأت حركة عدم التعاون سنة ١٩٢١ قصر والد بوز نشاطه على الجانب العلمى من برنامج حزب المؤتمر وهو الخاص بتشجيع غزل الملابس ونسجها يدويا ؛ ونشر التعليم الوطنى ، وكان الرجل فضلا عن ذلك شديد المحافظة على تعاليم دينه الهندوكى ، وشديد البر بالفقراء والمحتاجين ، وقد حرص قبل وفاته على ان يوصى بمعاش خاص لخدمه الذين تقدمت بهم السن

وكانت والدة صبحاس بوز أيضا من أسرة عريقة غنية فى شمال كلكتا . وكان جدها وأبوها على جانب كبير من الذكاء والثقافة . ويروى بوز أن جده لأمه ، لم يوافق على زواج ابنته من والد بوز الا بعد امتحان عسير لكفايته الثقافية ومدى ذكائه !

فى كنف هذين الوالدين نشأ بوز نشأة فيها مزيج من التحفظ والرهبة ، وحب العلم ، واستقامة الخلق ، والحرص على أداء الواجب ، وقد تلقى دروسه الاولى فى مدرسة انجليزية من مدارس الخاصة فى ذلك العهد ، وتربى تربية أساسها العناية بتقوية الشخصية ، وتنمية الروح الرياضية قبل العناية بالحفظ والدرس وحشو الرءوس بالمعلومات المدرسية ، ولكنه لاحظ بعد ذلك ان هذه المدارس الانجليزية ، كمثيلاتها فى مصر وغيرها ، وكما هو الشأن فى المدارس الاجنبية التى على غرارها ، تلقن الاطفال فى هذه السن الباكرة معلومات

عن انجلترا وتاريخها وأحوالها أكثر بكثير مما تلقنهم عن أحوال بلادهم وتاريخها فضلا عن اهمال لغة البلاد اهمالا يكاد يكون عن قصد وعمد . وقد كتب صبحاس فى مذكراته يقول : انه على ضوء هذه التجربة لايوافق على الحاق أى طفل أو طفلة هندية بمدرسة انجليزية ، بل يرى من الخطأ فى التربية ارسال الاولاد الى بريطانيا للدرس منذ الصغر ، ويحبذ بدلا من ذلك أن يتلقى الاطفال تعليمهم أولا فى المدارس الوطنية ، ثم يرسلون الى الخارج بعد ذلك أى بعد أن يشبوا ويتلقوا قدرا كافيا من الدراسة عن بلادهم ولغتهم .

وفى كاتاك أيضا تلقى بوز دراسته الثانوية ، وفى هذه الفترة ساقته المصادفة عندما كان فى الخامسة عشر من عمره ، الى مطالعة مؤلفات الفيلسوف الهندى العظيم فيفيكانندا Vivekananda ، فاذا هو يقع على المثل الاعلى الذى عقد العزم على اعتناقه والعمل على تحقيقه فى مستقبل حياته ، وقد تجسم له هذا المثل فى قول ذلك الحكيم الهندى : « فليكن هدفك فى الحياة خلاص نفسك ، وخدمة الانسانية جمعاء» ! وقدكان فيفيكانندا يرى ان خدمة الوطن جزء لا يتجزأ من خدمة الانسانية ومن كلماته المأثورة : « صيحوا أيها الرفاق بأعلى اصواتكم ، ان الهندى العادى ، والهندى الامى ، والهندى البراهمى ، والهندى المنبوذ ، كلهم أخى » !

وكانت فلسفة فيفيكانندا تصل الى مستوىعملي واقعي يبلغ حد السخرية اللاذعة ، ومن ذلك قوله لبعض تنابلة النساك : « ان الخلاص يأتى من كرة القدم .. لا من طريق كتبكم المقدسة » ! وكان هدفه من هذه السخرية تحريك الهمم ، والدعوة الى النشاط والعمل بدلا من قتل الوقت والقناعة بقراءة الكتب الهندوكية المقدسة !

وقد كانت حياة بوز من ذلك التاريخ صورة متجددة من صور الحركة والنشاط ، والكفاح الوطنى الحافل بالتضحيات الجسام .

ولعل أقسى تجاربه فى هذه السن الباكرة خروجه من بيت أهله وتخليه فى السادسة عشر من عمره عن حياة الترف واليسار والنعمة بين كنف والديه ، ليهيم على وجهه فى جبال الهمالايا عسى أن يجد فى سكونها الموحش وحيا روحانيا يهديه الى طريق الحق والرشاد . وقد أمضى فى هذه الخلوة الجبلية عاما راح بعده يطوف المدن المقدسة وبينها مدينة بنارس « مكة الهندوكيين » ، وهناك نزلت به الحمى التيفودية وكادت تفتك به ، لولا ان أحد الاصدقاء عرف شخصيته ونقله الى عائلته التى كان القلق يستبد بها لغيابه وانقطاع أخباره .

وعاد بوز الى كليته فى كلكتا ، وهناك اشترك مع زملائه فى ضرب مدرس انجليزى ضاق الطلبة بصلفه وكثرة اهاناته . ففصل من الكلية ، ثم عاد فحصل على شهادة الليسانس فى الفلسفة بامتياز الشرف سنة ١٩١٨ ، وسافر بعد ذلك الى انجلترا حيث حصل على شهادة تؤهله لمهنة التدريس ، ونجح فى امتحان المسابقة الذى يعقد للالتحاق بخدمة الحكومة سنة ١٩٢٠ ، ولكنه لم يلبث أن أرسل استقالته بالبريد لانه أنف ان يخدم حكومة اجنبية ، هى الحكومة البريطانية الاستعمارية القابضة على زمام الامر فى الهند .

وواصل بوز دراسته فحصل على درجة أخرى من جامعة كمبردج سنة ١٩٢١ وعاد الى الهند فى سبتمبر من ذلك العام ليسهم فى حركة العصيان المدنى تحت زعامة غاندى ، وفى نوفمبر من العام نفسه تزعم حركة قامت بتنظيم مقاطعة الاحتفال بزيارة البرنس أوف

ويلز للهنـــد فألقى القبض عليه وعلى الزعيم الهنـــدى المسلم المعروف مولانا أبوالكلام أزاد ، وعلىآلزعيم الهندوكى المشهور فى البنغال « داس » .

ولم يكد يفرج عنـــه حتى خصص معظم نشـــاطه لتنظيم حركات الشباب وأنشأ حزب الشباب البنغالى واصبح هو رئيسه ، ولما توفى «داس» أصبح بوز زعيم البنغال غير منازع . وقـــد قبض عليه مرة أخرى فى أكتوبر سنة ١٩٢٤ لنشاطه الوطنى ، وزج به فى سجون اليبور ، وماندلاى واينين ، فى بورما « وكانت يومئـــذ جزءا من الهند » .

وقد انتخب بوز عضوا بالمجلس التشريعى عن شمال كلكتا ، ثم عين فى سنة ١٩٢٩ هو والبانديت جواهر لال نهرو سكرتيرين للمؤتمر الهندى الوطنى . وفى ذلك العام قام بوز بتنظيم حركة أخرى لمقاطعة لجنة سيمون التى أوفدها الانجليز لتحطيم وحدة الشعب الهندى ، تماما كما فعلوا يوم أرسلوا لجنة ملنر الى مصر وكان نصيبها أيضا تلك المقاطعة الرائعة .

وفى سنة ١٩٣٠ انتخب بوز رئيسا لبلدية كلكتا وهو يمضى فترة أخرى فى أحد سجون بورما . وفى ســـنة ١٩٣١ نظم مظاهرة وطنيـــة كبرى ضـــد الاستعمار ، وهاجم اشتراك المؤتمر الوطنى فى مؤتمر المائدة المستديرة ودعا الى محالفة الدول التى تناصب بريطانيا العداء ، لا حبـــا فى أية دولة من تلك الدول ، بل كراهيـــة فى الاستعمار البريطانى .

وفى سنة ١٩٣٢ القى القبض من جديد على بوز وظل فى الاعتقال حتى شهر مارس سنة ١٩٣٣ ، اذ اضطرت السلطات البريطانية للافراج عنه بسبب انهيار صحته ، ولم يجد بدا من السـماح بنقله الى أوربا لاسعافه

بالعلاج ، ولم تكد صحته تتحسن حتى استقل الباخرة عائدا الى وطنه فجأة من النمسا دون أن يحصل على اذن من الحكومة فألقى القبض عليه فى الباخرة بميناء بمباى وأودع غياهب السجن من جديد ، وما زال يعانى فى سجنه حتى تدهورت صحته مرة أخرى ، فاضطرت الحكومة الى اطلاق سراحه سنة ١٩٣٧ وصرحت بنقله الى فينا لمعاودة العلاج ، ولكنه لم يكد يتقدم خطوات فى طريق الشفاء حتى راح ينظم صفوف الشباب الهندى فى أوربا ، وينفخ من روحه الوطنية الجبارة .

وبينما هو فى أوربا الوسطى رأى حزب المؤتمر الوطنى أن يعبر عن تقديره لجهاد صبحاس بوز واخلاصه لوطنه ، فانتخبه رئيسا للمؤتمر فى دورة سنة ١٩٣٨ ، التى عقدت فى مدينة هاريبوا . ولكن عوامل الخلاف حول وسائل الجهاد بين بوز واللجنة العليا للمؤتمر ، وهى التى يسمونها « اللجنة العاملة » لم تهدأ بهذا التكريم الوطنى للزعيم الشاب ، الذى كان يعترض أشد الاعتراض على قبول الحكم المؤقت فى ظل الاحتلال البريطانى ، وكان يرى ألا يشترك المؤتمر الوطنى فى حمل اعباء الحكم قبل أن يجلو الاستعمار عن آخر شبر من أرض الوطن . وقد اتخذ الخلاف صورته الحادة فى الدورة التى عقدها حزب المؤتمر فى تريبورا سنة ١٩٣٩ وهى الدورة التى كان من حظى أن أشهدها ، وان اقابل الزعيم فى مخيمه يعانى أوصاب المرض قريبا من مكان المؤتمر . ومن هذا المخيم المتواضع أدار المناضل الجبار معركة انتخابه ، أو على الاصح تجديد انتخابه لرئاسة المؤتمر ، متحديا مرشح القيادة العليا للحزب ممثلة فى غاندى ونهرو وباتل .. وقد كتبت يومئذ اصف المعركة ، فقلت :

« انها معركة حامية الوطيس بين اليسار واليمين ، »
« بين الشدة واللين ، بين التهور والتبصر . بين »
« المضاء فى الجهاد ، والولاء لزعماء الجهاد »
« الاقدمين ... وكان أغرب مظاهر هذه المعركة »
« ان طرفيها الحقيقيين خاضا غمارها عن بعد : »
« غاندى زعيم الامة المقدس يديرها من صومعته »
« التى أبى أن يفارقها ليحضر دورة المؤتمر رغم »
« الحاح الجميع عليه وفى مقدمتهم بوز .. وبوز »
« يديرها من فراش المرض فى خيمته بارض »
« المؤتمر ، وقد أصر على ان ينقل الى جبلبور »
« رغم اشتداد وطأة المرض عليه قائلا : انه يؤثر »
« أن يموت بين عشرات الالوف الذين حضروا من »
« أطراف الهند للاجتماع فى هذه البقعة ، وانه »
« ليس من حقه كرئيس المؤتمر فى دورته الماضية »
« ومرشحه فى دورته القادمة أن يتخلف عن هذه »
« الجماهير ولو كان مصابا بذات الرئة وكان »
« موقف نهرو من هذه المعركة بين زعيمه الجليل »
« وزميله العليل آية من آيات النضال السياسى »
« فى انبل معانيه .. اذ كان يقسم وقته بين الاشراف »
« على المعركة والخطابة فى تأييد مرشح القيادة »
« العليا للرئاسة ، وبين السعى مهرولا الى خيمة »
« منافسه صبحاس بوز للاطمئنان على صحته ، »
« كصديق وزميل ومجاهد كريم .. »

« وكان الفوز حليف المرشح اليسارى الثائر »
« العليل صبحاس تشندرا بوز » .

وكانت خطبة الرئاسة التى أعدها بوز ، ولم يتمكن من القائها بنفسه لمرضه ، فألقيت باسمه ، من أروع الخطب السياسية ، بل الوطنية فى تاريخ الهند ، ولولا

ضيق المقام لنقلتها بأكملها ، ولكنى أجتزىء الآن بقوله :

« اذا نحن قضينا على خلافاتنا ، ووحدنا جميع كفاياتنا ، وحشدنا للجهاد الوطنى كل قوتنا ، لما استطاع الاستعمار البريطانى أن يصمد لهجمتنا . فهل يتوفر لدينا من بعد النظر السياسى ما يكفل لنا استغلال موقفنا الملائم الحالى الى أقصى حدود الاستغلال ، أم اننا سنضيع هذه الفرصة النادرة فى حياة أى شعب من الشعوب .

لقد أشرت فيما سبق الى ما ينبغى علينا من القيام بزحف نهائى نحو الاستقلال . وهذا يقتضى أن نعد للجهاد عدته .. وأول ما ينبغى فى هذا الصدد هو أن نتخذ الخطوات لكى نقضى فى غير رحمة على أى عنصر من عناصر الفساد أو الضعف تتسرب الى صفوفنا لاسباب مرجعها فى الغالب بريق الحكم الجذاب .. وعلينا بعد ذلك أن نعمل فى تعاون وثيق مع جميع الهيئات التى تحارب الاستعمار فى البلاد. فلا بد لجميع الهيئات الراديكالية من التعاون وتنسيق العمل فيما بينها ، ولا بد من توحيد جهود المنظمات المعادية للاستعمار حتى تتضافر كلها فى توجيه الهجوم الحاسم على الاستعمار البريطانى » .

وقد حاول بوز تأليف هيئة عليا مشتركة من طرفى اليمين واليسار فى المؤتمر الهندى فلم يوفق ، واضطر الى الاستقالة من رئاسة المؤتمر فى دورة كلكتا فى ابريل سنة ١٩٣٩ ، وفى شهر مايو ألف « الجبهة التقدمية » داخل المؤتمر وحاول أن يوحد تحت لوائها جميع العناصر اليسارية ، وفى دورة المؤتمر التى عقدت سنة ١٩٤٠ حمل على سياسة المهادنة وعارض فى وقوف

الهند الى جانب بريطانيا فى الحرب الاستعمارية الناشبة ، وفى ٦ ابريل سنة ١٩٤٠ راس دورة الجبهة التقدمية فى ناجبور ، وقاد المظاهرات الوطنية فى كلكتا فقبض عليه وعاد الى مكانه المعتاد فى السجن ، ولكنه أعلن اضرابه عن الطعام حتى الموت أثناء محاكمته ، فأفرج عنه لتدهور صحته فى ديسمبر سنة ١٩٤٠ ، وحددت اقامته فى منزله . واستطاع رغم الرقابة البوليسية الدقيقة أن يختفى من منزله فى ١٦ يناير ١٩٤١ ، وعرف بعد ذلك انه أطلق لحيته واتقن التخفى حتى استطاع الافلات من حصار الانجليز ، ورحل الى بورما والملايو وأعلن فى سنة ١٩٤٣ تشكيل حكومة « ازاد هند » أى الهند الحرة فى سنغافورة تحت رئاسته وعقد محالفة سياسية حربية مع دول المحور لمساعدته فى تحرير الهند ، وأصبح هو قائدا عاما للقوات التى حشدها بالفعل ، وحاول أن يحرر بها وطنه من المستعمر بحد السلاح .

ثم كان ما هو معروف من رجحان كفة الحلفاء فى الشرق الاقصى ضد اليابان ، فاضطر الى ركوب طائرة خصصها اليابانيون لنقله الى اليابان مع لفيف من جنوده الاوفياء ، بينهم صديقه وزميله الكولونيل حبيب الرحمن ، وقامت بهم الطائرة بعد ظهر يوم ١٨ اغسطس سنة ١٩٤٥ ، ولكنها لم تكد تحلق مسافة مائة وعشرين قدما حتى سقط أحد محركاتها ، فلما هبطت الى الارض اندلعت فيها النيران ، وخرج منها بوز وهو شعلة من اللهب ، فبادر صديقه الكولونيل حبيب الرحمن الى اطفاء النار غير عابىء باصابته هو ، غير أن النار لم تهدأ حتى تركت آثارها السيئة فى جسم المجاهد الجبار .. فما هى الا ساعات مضت على نقله الى

المستشفى حتى فاضت روحه الطاهرة فى الســاعة التاسعة مساء اليوم نفسه ، وقد ظـل محتفظا بوعيه وهدوئه حتى اللحظة الاخيرة ، وقبـل ان تنطفىء الخفقة الباقية من سراج حياته استدعى اليه الكولونيل حبيب الرحمن وطلب منه أن يحمـل الى مواطنيه الرسـالة الآتية :

« لقد كافحت حتى النهاية فى سبيل اســتقلال »
« الهند وهأنذا أبذل حياتى فى سبيل هذه الغاية »
« فامضوا فى كفاحكم أيها المواطنون ، ولن يمضى »
« وقت طويل حتى تتحرر الهند .. لتحى الهند »
« الحرة .. »

***

وقد احتفـل باحراق رفات الزعيم طبقا للتقاليـد الهندوكية فى الثانى والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٤٥ ، وجمع الرماد فى اليوم التالى وأودع معبـد البوذيين فى رنكوجى باليابان فى١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٥

وبعد ... فقد كتب الصحفى المؤلف المعروف «جون جنتر» فى كتابه « داخل آسيا » يقول : انه لايوجد هندى ضحى وتعذب فى سبيل وطنه أكثر مما ضحى صبحاس بوز ، سوى زعيم واحد هو جواهر لال نهرو.

وكان ذلك فى سنة ١٩٣٩ ..

ولم يكن « جنتر » يعلم يومئذ أن تضحية صبحاس بوز ستقوده الى أعوام أخرى من السجن ، والفرار ، والهجرة من الوطن ، والـكفاح المسلح الذى لم ينته الا بالموت ... أعنى بالخلود الذى ليس بعده خلود !

عبد الرحمن الكواكبي

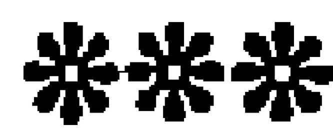


هنا رجل الدنيا ، هنا مهبط التقى
هنا خير مظلوم ، هنا خير كاتب
قفوا واقرأوا أم الكتاب وسلموا
عليه ، فهذا القبر قبر الكواكبي

لا ادرى ماذا فعلت الرياح والرمال ، والاعوام الطوال ، بهذين البيتين اللذين نقشا على مقبرة المجاهد المناضل الفيلسوف الحر عبد الرحمن الكواكبى الذى وافته منيته بالقاهرة فى مطلع القرن الحالى ، أو فى سنة ١٩٠٢ على وجه التحديد . ولكنى أرجو — مع كل اعجابى بشاعر النيل حافظ ابراهيم — أن تكون يد الطبيعة قد عاونت يد الزمان فى محو هذا الشعر الفاتر الذى يشبه نظم « الفقهاء » رثاء لرجل من قلائل الرجال الذين لا يكمل تاريخ الكفاح فى سبيل حرية الشرق دون أن يذكروا فى أمجد صفحاته .

ولعل أروع ما يصادف الانسان فى صحبة عبد الرحمن الكواكبى انه لم يتخذ الفلسفة أو دعوة الاصلاح حرفة يستغنى بها عن الكسب أو يكسب من طريق الاتجار بها والتواكل على حسابها ، وانما كان رجل مال وأعمال ، ورجل كفاح ونضال ، ورجل خلق واصلاح ، ورجل هندسة وقانون وسياسة ، ومع ذلك فانه لم يدرس شيئا من هذا كله دراسة علمية منتظمة

بل كان « عمدته فى هذه العلوم ما طالعه فيها من المؤلفات والجرائد التركية والعربية » كما كتبت فى تأبينه مجلة « المنار » ، وقد تساءل صاحب المنار فى هذا الصدد وكان فى تساؤله محقا : « أرأيت عقلا يتصرف هذا التصرف الذى يفوق فيه الحكماء والفلاسفة فى علم لم يأخذه بالتلقى ، وهو أصعب العلوم البشرية وأعلاها ، وكيف يكون أثره لو تربى وتعلم فى مدارس منتظمة كمدارس أوربا الجامعة ؟ .. »



لقد ولد عبد الرحمن الكواكبى سنة ١٨٤٩ بمدينة حلب من أسرة الكواكبى المشهورة ، وكان أبوه الشيخ احمد الكواكبى من أفاضل العلماء الذين يدرسون فى الجامع الاموى بدمشق . وكانت لاسرته آثار مشهورة منها المدرسة الكوكبية بحلب . وقد تلقى مبادىء القراءة والكتابة فى بعض المدارس الاهلية وتعلم اللغتين التركية والفارسية ، على يد مدرس خاص . ودرس العلوم العربية والشرعية بمدرسة الكواكبية ، كما تلقى بعض علوم الرياضة والطبيعة ، ودخل خدمة الحكومة فى الثامنة والعشرين من عمره ، اذ عين محررا للجريدة الرسمية بقسميها العربى والتركى ، ثم عين كاتبا فخريا ـ أى بدون راتب ـ للجنة المعارف بولاية حلب ، وبعد ثلاث سنوات عين عضوا فخريا أيضا بقسم الاشغال العامة ، ثم مسجلا للمحكمة ، ثم رئيسا لقلم المحضرين ، ثم عضوا فخريا بلجنة امتحان المحامين .. ثم مديرا فخريا لمطبعة الولاية الرسمية ، ثم رئيسا فخريا للجنة الاشغال .. ثم عضوا فى المحكمة المدنية بالولاية . وفى سنة ١٨٩٤ ـ أى عندما كان فى الخامسة والاربعين من عمره ـ عين رئيسا للبلدية . وبعد عامين عين رئيسا

لكتاب المحكمة الشرعية ، ثم عين ناظرا ومفتشا لمصلحة احتكار التبغ فى ولاية حلب ومدبرية الزور ، وفى خلال ذلك اتفق مع المصلحة على أن يتسلم هو جميع ما تنتجه من التبغ ويتولى بيعه فى مقابل مبلغ يزيد زيادة ضخمة عن الثمن الذى كانت تتقاضاه المصلحة ، ثم عين رئيسا لغرفة التجارة بحلب ورئيسا لمجلس ادارة البنك الزراعى ، ثم عين قاضيا شرعيا لاحدى الولايات السورية .

وقد علق احد مترجميه على هذا التنوع الغريب فى الوظائف التى تولاها الكواكبى فقال : « ان من لم يكن عارفا بالمترجم — أى الكواكبى — ولا بسيره فى هذه الوظائف العلمية ، الادبية الادارية ، العلمية ، الحقوقية ، التجارية ، الزراعية ، المالية ، يقول ان صاحبها من اوساط الناس لا من أفراد الرجال الذين يعدون من علماء الاجتماع وأركان العمران ومهذبى الامم .. ولكن من يعلم انه فى كل عمل منها آية بينة فى انفاذ العمل وحكمة التصرف يحار كيف يحسن رجل هذه الأعمال المتباينة ! »

وهذا حق تؤيده صحيفة أعمال الرجل واتجاهاته فى كل دور من أدوار حياته . وقد استهل حياته العامة بأن انشأ ، وهو فى الثلاثين من عمره ، مجلة أسبوعية اسمها « الشهباء » حمل فيها على مظالم الدولة العثمانية ، حملة شعواء كانت سببا فى اغلاقها ، فأصدر مجلة أخرى سماها « الاعتدال » فلم تكن أسعد حظا من سابقتها ..

ولم يكن تعطيل الجريدتين هو كلما أصاب الكواكبى من ظلم وعنت ، بل ان حملته على الاستبداد جرت عليه فى أعقاب ذلك مؤامرة دبرها له أحد ولاة حلب ، وحكم

عليه بالسجن ، فاستأنف الحكم ، فحكم ببراءته ، ولكنه خسر بسبب ذلك خسارة مالية جسيمة فى شركاته ومزارعه ، وما زال الاضطهاد يلاحقه فى نفسه وماله حتى هاجر الى مصر حيث أقام سنتين ، قام خلالهما بسياحتين طويلتين الى بلاد العرب والهند ، وشرقى افريقيا ، ثم توفى بمصر سنة ١٩٠٢ ، قبل أن يتجاوز الثالثة والخمسين من عمره ، وقيل فى بعض الروايات انه مات ميتة غير طبيعية ، وان السلطان عبد الحميد قد بعث الى مصر بمن دس له السم فى الطعام، بعد أن ضاق بدأبه على مهاجمة الطغيان فى سلسلة من المقالات نشرتها له جريدة « المؤيد » وجمعت فيما بعد فى كتابه المشهور الذى سمى « مصارع الاستبداد » .

على ان الرواية التى ساقها فى هذا الصدد صديقه الاديب العلامة المعروف السيد محمد كردعلى ، لاتؤيد هذا الظن ، فهو يروى فى مذكراته ماحدث فى الليلة التى مات فيها الكواكبى قائلا : « جاءنى ذات ليلة ـ اى الكواكبى ـ يسمر معى فى دارى مع الحبيب رفيق بك العظم ويستشيرنى فى أمر عظيم ، قال أن الخديو عباس عرض عليه أن يصحبه الى الآستانة ، وكان الخديو يصطاف فيها ، ليقدمه الى السلطان العثمانى ويستجلب رضاه عنه ، وبذلك تنحل هذه المشادة ويطمئن خليفة الترك اليه ، فصعب على وعلى رفيق بك ابداء رأى فى موضوع جد خطير كهذا ، لان ابن عثمان لا تأخذه هوادة فيمن خرجوا على سلطانه ، وخشينا أن تكون هناك دسيسة يذهب الرجل ضحيتها . ومما قال لنا انه حائر فى أمره بين القبول والرفض ، وانه شعر بالامس بوجع فى ذراعه ، وما عرف له تعليلا » وتقوض المجلس وذهب السيد الكواكبى الى داره .

فما هى الا ساعة وبعض ساعة حتى سمعت ان ابن السيد « كاظم » فى الباب يبكى وينوح ويقول : قم ياكردعلى فان صديقك أبى مات ، فاضطربت اضطرابا قل أن اضطربت مثله ، ودخلت على الرجل فسجيته بيدى ، ومن الغد دفناه بمشهد حافل ، وأبنته الصحف تأبينا قدرته فيه قدره . شغل اصحابنا هول الفجيعة وذهبوا الى ان الكواكبى مات مسموما ، واستبعد ذلك بعضهم ، وكان الناس يتهمون عبد الحميد بانواع من التهم وكان بعض من اقتربوا منه يبرئونه مما يرمى به » ..

والرواية على هذا النحو لا تشير الى شىء من اعراض التسمم ، ولعلها تشير فى الوقت نفسه الى احد الاعراض التى قد تفسر المرض الذى مات به الكواكبى، فان السيد كردعلى يذكر ان الكواكبى شكا اليه ألما اصابه فى ذراعه فى اليوم السابق لوفاته ولم يعرف له تعليلا ، وانا لا احب أن أدعى علم الطب ، ولكنى أذكر مع التحفظ ان مثل هذا الالم يعتبر عرضا من أعراض الذبحة الصدرية التى تودى بحياة الكثيرين أحيانا فى ساعات معدودات .

ومهما يكن من أمر السبب المباشر لوفاة الكواكبى فى الثالثة والخمسين من عمره ، فان الذى لاشك فيه انه ترك فى أدب الكفاح كتابين خالدين ، على ضآلة حجمهما ، وهما : « مصارع الاستبداد » و « أم القرى » .

أما الكتاب الاول فقد جعل عنوانه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » واضاف الى العنوان هذه الكلمات : « وهى كلمات حق وصيحة فى واد ، ان ذهبت اليوم مع الريح ، فقد تذهب غدا بالاوتاد ، وطبع

الكتاب بمطبعة التوفيق بشارع كلوت بك بمصر ، منسوبا الى « الرحالة ك ... »

وقد قال الكواكبى فى مقدمة الكتاب : « انه المضطر بالاكتتام حسب الزمان، الراجى اكتفاء المطالعين الكرام بالقول عمن قال ... »

وهكذا يعزو الكواكبى « اكتتامه » وهو تعبيره عن السرية والتخفى ، الى مقتضيات « الزمان » ... ثم يضيف الى ذلك ايضاحا يقول فيه انه حين قدم الى مصر نشر فى بعض الصحف « أبحاثا سياسية علمية فى طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، منها مادرسته ومنها ما اقتبسته ، غير قاصد بها ظالما بعينه ولا حكومة مخصصة ، انما أردت بذلك تنبيه الغافلين لمورد الداء الدفين ، عسى يعرف الشرقيون انهم هم المتسببون فلا يعتبون على الاغيار ، ولا على الاقدار ... »

بهذه الروح الصريحة الجريئة ، وبهذا الافق الواسع الفسيح ، ولهذا الهدف الجليل الخطير، كتب الكواكبى أبحاثه ودراساته عن طبائع الاستبداد ، وقد حاول بعض الناس التشكيك فى انه صاحب هذه المقالات ، ونسبوها الى كتاب ايطالى ترجم الى اللغة التركية ، وعنه نقل الكواكبى كثيرا مما كتب ، ولكن هذه الدعوى تفتقر الى تحديد وتأييد وان يكن الكواكبى قد اعترف فى المقدمة بانه قد استعان « بالاقتباس ».

والواقع ان الذى يقرأ هذه الفصول لا يشك فى أصالة النفس الحرة التى أملتها ، وحرارة العقيدة التى دفعت اليها . وأن المرء ليكاد يحار فى اقتباس بعضها والاعراض فى بقيتها ، فان الفصول فى تعددها تؤلف وحدة متناسقة ، متصلة يصعب فصلها واقتضابها

ولعل من أمتع هذه الفصول ما جاء فى مستهلها عن تعريف الاستبداد ، ومن أقواله فى هذا الفصل :

« المستبد يتحكم فى شئون الناس بارادته لا بارادتهم ، ويحاكمهم بهواه لا بشريعتهم ، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدى فيضع كعب رجله على أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعى لمطالبته »

« المستبد عدو الحق عدو الحرية وقاتلهما والحق أبو البشر والحرية أمهم ، والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا ، والعلماء هم اخوانهم الراشدون ، ان ايقظوهم هبوا ، وان دعوهم لبوا »

ويقول فى فصل آخر عن « الاستبداد والدين » :

« ان الاسلامية مؤسسة على أصول الادارة الديمقراطية أى العمومية والشورى الارستقراطية اى شورى الاشراف . وقد مضى عهد النبى عليه السلام وعهد الخلفاء الراشدين على هذه الاصول بأتم واكمل صورها ، خصوصا وانه لايوجد فى الاسلامية نفوذ دينى مطلقا فى غير مسائل اقامة الدين .. . »

« ان العلم كشف فى هذه القرون الاخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوربا وامريكا ، والمدقق فى القرآن يجد أكثرها ورد بالتصريح أو التلميح به فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا . . . »

« كشفوا ان مادة الكون هى الاثير ، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال : « واستوى الى السماء وهى دخان »

« وكشفوا ان الكائنات فى حركة دائمة ودائبة والقرآن يقول : « وآية لهم الارض الميتة أحييناها »

الى أن يقول : « وكل فى فلك يسبحون »

« وحققوا ان الارض منفتقة من النظام الشمسى والقرآن يقول : « ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما »

« وحققوا أن العالم العضوى ومنه الانسان ترقى من الجماد والقرآن يقول : « خلقنا الانسان من سلالة من طين »

ويتحدث فى فصل آخر عن الاستبداد والعلم فيقول :

« المستبد كما يبغض العلم لنتائجه يبغضه لذاته ، لان للعلم سلطانا أقوى من كل سلطان فلا بد للمستبد من أن يحتقر نفسه كلما وقعت عيناه على من هو أرقى منه علما ، ولذلك لا يحب المستبد أن يرى وجه عالم ذكى فاذا اضطر لمثل الطبيب والمهندس يختار المتصاغر المتملق ، وعلى هذه القاعدة بنى ابن خلدون قوله : « فاز المتملقون » ...

« وينتج مما تقدم ان بين الاستبداد والعلم حربا دائمة ، وطرادا مستمرا ، يسعى العلماء فى نشر العلم ويجتهد المستبد فى اطفاء نوره ، والطرفان يتجاذبان العوام . ومن هم العوام ؟ هم أولئك الذين اذا جهلوا خافوا واذا خافوا استسلموا . وهم الذين اذا علموا قالوا ، ومتى قالوا فعلوا ... »

أليست هذه خلاصة دقيقة للصراع بين شعوب الشرق وبين الاستعمار تارة ، وبينها وبين الحكام الطغاة تارة أخرى ؟

وعلى هذا النسق يمضى الكواكبى فيحدثنا حديثا اخاذا مثيرا لانبل العواطف فيتكلم عن الاستبداد والمجد ، والاستبداد والمال ، والاستبداد والاخلاق ،

والاستبداد والتربية ، والاستبداد والترقى ، الى أن يختتم هذه الفصول الرائعة بفصل عن الاستبداد والتخلص منه . وفى هذا الفصل يطرح « لتدقيق المطالعين » رءوس مسائل تصل الى خمسة وعشرين تحدث عن آخرها فوضع القواعد التالية :

١ ــ الامة التى لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية .

٢ ــ الاستبداد لا يقاوم بالشدة ، انما يقاوم باللين والتدريج .

٣ ــ يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد .

وأخيرا يختتم الكتاب قائلا :

« وانى أختم هذا البحث بأن الله جلت حكمته قد جعل الامم مسئولة عن أعمال من حكمته عليها وهذا حق . فاذا لم تحسن الامة سياسة نفسها أذلها الله لأمة أخرى تحكمها كما تفعل الشرائع باقامة القيم على القاصر ، أو السفيه ، وهذه حكمة . ومتى بلغت أمة رشدها استرجعت عزها وهذا عدل . وهكذا لا يظلم الله الناس ، بل الناس هم أنفسهم يظلمون »

***

أما الكتاب الآخر ، وهو « أم القرى » فقد قيل فى عنوانه : « انه ضبط مقاوضات ومقررات مؤتمر النهضة الاسلامية المنعقدة فى مكة المكرمة سنة ١٣٩١» وقد أعدمت الطبعة الاولى من هذا الكتاب بأمر السلطان عبد الحميد ... فأعيد طبعه مرات ، وكان وجود نسخة منه فى زمن الظلم فى منزل أحدهم كافيا للقضاء عليه قضاء أبديا على حد قول ناشره .

وقد قال الكواكبى فى تقديمه :

« أما بعد ، فأقول أنا الرحالة المتكنى بالسيد الفراقى ، انه لما كان عهدنا هذا ، وهو أوائل القرن الرابع عشر عهداً عم فيه الخلل والعنف كافة المسلمين وكان من سنة الله فى خلقه أن جعل لكل شىء سبباً فلا بد لهذا الخلل الطارىء والعنف النازل من أسباب ظاهرية غير سر القدر الخفى عن البشر . فدعت حمية بعض أفاضل العلماء والفارئين والكتاب السياسيين للبحث عن أسباب ذلك والتنقيب عن أفضل الوسائل للنهضة الاسلامية ، فأخذوا ينشرون آراءهم فى ذلك فى الجرائد الاسلامية الهندية والمصرية والسورية والتاتارية وقد اطلعت على كثير من مقالاتهم الغراء فى هذا الموضوع الجليل ...

« ثم بدا لى أن أسعى فى توسيع هذا المسعى بعقد جمعية من سراة الاسلام فى مهد الهداية أعنى مكة المكرمة » .

ويستطرد الكواكبى فيذكر انه قام برحلة واسعة حتى وصل الى المدينة المنورة ، وهناك وجد أكثر الذين دعاهم للاجتماع اثناء الرحلة قد سبقوه ما عدا الاديب البيروتى ، وفى انتظار الاجتماع سعى مع بعض الوافدين فى تحرى واختيار اثنى عشر عضوا لاضافتهم للجمعية وهم من مراكش وتونس والقسطنطينية وبفجه سراى وتفليس وتبريزوكابل وكشغر وقازان وبكين ودلهى وكلكتا وليفربول .

وعن هؤلاء جميعا يقول الكواكبى انه عقد مؤتمرا للبحث فى دار اتخذها بمكة باسم مستعار وراح كل منهم يسرد آراءه فى أسباب تأخر الاسلام والمسلمين ،

والشرقيين أجمعين ، والوسائل الكفيلة بازالة هذه الاسباب .

وقد اختار الكواكبي لكل منهم اسما مستعارا ، ينسب فيه كل مندوب الى بلده .

ولم يكن لهذا المؤتمر أثر الا في مخيلة العالم المصلح المكافح الذى أصبح اسمه اليوم علما من أرفع اعلام الكفاح ضد الفساد وضد الاستبداد .

شارلوت كورداى



ــ ماذا كان الفرض من قدومك الى باريس ؟

ــ لم يكن لى سوى غرض واحد ، هو أن أقتــــل مارا ...

ــ وما هى البواعث التى حملتك على ارتكاب جريمة بشعة كهذه ؟

ــ جرائمه الـكثيرة ...

ــ ما هى الجرائم التى تنسبينها اليه ؟

ــ خراب فرنســا ، والحرب الاهلية التى أشــعل نارها فى انحاء البلاد ...

ــ على أى أساس تبنين هذه الاتهامات ؟ ..

ــ على أساس ان جرائمه الغابرة تدل على جرائمه الحاضرة ، وانه المحرض على مذابح شهر سبتمبر ، وانه كان حريصا على ابقاء نيران الحرب الاهلية مشتعلة لعله يصبح دكتاتورا وانه حاول الاعتداء على سلطــان الشعب اذ تسبب فى القبض على النواب وسجنهم فى ٣١ مايو ...

ــ وأى دليــل عندك على أن مارا هو الذى ارتكب هذه الشرور التى تذكرينها ؟ ..

ــ ليس لدى أى دليــل أقدمه ، ولـكن هــذا هو الاعتقاد السائد فى فرنسا ، وستثبت صحته الايام ،

وقد كان مارا يخفى خطته خلف قناع من الوطنية ...
ــ وهل قصدت قتله حينما سددت اليه الضربة ؟
ــ كان هذا هو قصدى الاكيد ! ..
ــ هل كنت تعلمين عندما سددت الضربة انها ستقتل مارا ؟ ..
ــ كنت أعتقد ذلك ...
ــ ان تصرفا وحشيا كهذا ما كان ليصدر عن امرأة فى سنك الغضة دون أن يحرضك عليه أحد ...
ــ انني لم أفض بخطتى لأحد ، واننى حين قتلت مارا لم أكن أعتقد انني أقتل مخلوقا بشريا ، بل حيوانا ضاريا يلتهم فرنسا ! ..

بهذا المنطق ، وبهذا الايمان ، وبهذا الثبات وقفت شارلوت كورداى « الملاك القاتل » تجيب على هذه الاسئلة وعشرات ومئات من أمثالها أمام المحكمة وأمام المحققين ، غير مضطربة ، ولا متلعثمة ، ولا نادمة ، بل ممتلئة ، على العكس من ذلك ، بشعور عجيب يمتزج فيه الفخر بالايمان والوطنية بالانسانية ، والصدق بالبساطة والتضحية بالتواضع ...

ولكن ، لنبدأ المأساة من أولها ، ولنعد فترة قليلة الى الوراء ...

كانت الثورة الفرنسية فى ذلك العام ــ عام ١٧٩٣ ــ قد بلغت مرحلة من العنف والتطاحن الشخصى واختلاط الاهداف بالاطماع ، حدا كادت تضيع فيه معالم تلك الثورة الرائعة التى زرع بذورها فى صدور الفرنسيين طغيان لويس الرابع عشر ، وفساد لويس الخامس عشر وبذخ لويس السادس عشر ، وروت شجرتها كتابات فولتير وديدور وروسو ، فلما نضجت وآنت أكلها راح أبناء الشعب يضطرعون ويقتتلون ،

ويتبادلون أشنع الاتهامات ، ويسيلون دماء بعضهم بعضا فى الاندية والطرقات .

وكان الصراع على السلطة قائما على أشده بين فريق المتطرفين بزعامة روبسبير ودانتون ومارا وديمولان .. وكانوا يسمون أنفسهم باليعقوبيين أو حزب الجبل ، اشارة الى مقاعد اليسار المرتفعة التى كانوا يحتلونها فى المجلس التشريعى ، وينافسهم فريق المعتدلين الذين يسمون أنفسهم بالجيروندين ويضمون رجال الطبقة الوسطى من المحامين والصحفيين والشعراء وغيرهم من صفوة المثقفين ، وعلى رأسهم السياسى الفيلسوف رولان وزوجته ، وبربارو ، ودوبريه . وكان من سوء حظ الاخيرين ان معظم أتباعهم من أهل الريف الفرنسى بينما كان اليعقوبيون يركزون نشاطهم بين الدهماء فى قلب باريس ، وينشرون ظلا مروعا من الارهاب ، ويحرصون على سفك دماء خصومهم بالعشرات والمئات بلا تورع ولا حساب . وقد ارتكب الجيزونديون اكبر خطأ سياسى فى تاريخهم ، وان كان يقطع بمدى شجاعتهم واستقامتهم ، اذ وجهوا الاتهام صريحا الى مارا ، وروبسبير ، بتدبير المذابح فى السجون ، وحوكم بالفعل مارا على هذه التهمة ثم قضى ببراءته ، فكان اعدام النواب التسعة والعشرين من الجيرونديين وكان بعد ذلك ما كان من انهيار هذا الحزب وانفراد حزب الجبل بمصائر الامور .

وقد ولد جان بول مارا فى سويسرا فى ٢٤ مايو سنة ١٧٤٣ ، وقد عنى والده عناية خاصة بتعليمه ، فلما بلغ السادسة عشرة غادر دار أبيه ليشق طريقه بنفسه فى الحياة واستقر به المقام فى مدينة أدنبره بعد أن طاف بأوربا نحو عشر سنوات . وفى انجلترا درس الطب

وزاول مهنته بلندن زهاء عشر سنوات قام خلالها بتجارب فى الكيمياء والكهرباء ، وانتقل فى سنة ١٧٧٩ الى باريس حيث اشتغل طبيبا خاصا لدى الكونت داروا . وأتيح له فى أوقات الفراغ أن يكتب رسالة عن « الكهرباء والمغناطيسية وتطبيقها فى الطب» ورسالة أخرى عنوانها « اكتشافات عن النار والكهرباء والضوء » ولكنه لم يلبث أن خاض غمار السياسة وأصدر جريدة سماها « صديق الشعب » راح ينفث فيها أفتك السموم ، ويحرض فيها على الثورة ، ويحض على القتل بعبارات صريحة طافحة بألوان السباب والاسفاف التى لم تكن تخلو منها حتى مؤلفاته العلمية فى صدر حياته .

وفى هذه الفترة تعرف مارا الى فتاة فى السادسة والعشرين من العمر تدعى « سيمون افراز » واتخذها خليلة له ، واستغل ما كانت تملكه من المال فى اصدار جريدته ولم يشأ أن يتزوجها حتى لقد لقى حتفه على مشهد منها بيد شارلوت كورداى .

أما شارلوت فقد ولدت من أسرة عريقة ولكنها فقيرة ، فى ٢٧ يونية سنة ١٧٦٨ م . وقد انجب أبوها خمسة أولاد ، اثنين من الذكور وثلاث آناث ، كانت مارى آن شارلوت ثانيتهن، وكان فرانسوا دى كورداى، والد شارلوت ، مولعا بالدرس والبحث والقراءة والكتابة فى داره الريفية المتواضعة ، وكان تبرمه بفقره حافزا له على كتابة عدة رسائل تفيض بالسخط على الانظمة الاجتماعية والسياسية السائدة .

وقد اضطرت شارلوت بحكم الحاجة القاسية الى العمل فى سن باكرة ، ثم الى التخفيف عن كاهل والدها بالاقامة مع عم لها كان قسيسا فى بلدة مجاورة . ثم

عادت لتنهض بأعبــاء العناية باخوتها تخفيفا عن كاهل امها . ولــكن القدر لم يترفق بالاسرة ، اذ توفيت الام قبل أن تتم شـــارلوت عامها الثالث عشر . فتقدمت راهبة كانت صديقة الام الراحلة وطلبت أن يعهد اليها بأمر شارلوت وأختها الصغرى ، وتعليمهما مع ابنــة أختها .

وفى رعاية هــذه الراهبة الــكريمة الصالحة أقامت شارلوت فترة من الزمن ، تدرس وتتعلم وتزداد على مر الايام ثقافة وازدهارا ، حتى كانت سنة ١٧٩٠ ، فاذا الاديرة تغلق بأمر من مؤتمر الثورة ، واذا شارلوت تجد نفسها مرة أخرى فى مهب الريح وهى فى العشرين من العمر ، وكانت أحوال أبيها انتقلت من سيىء الى أسوأ ، وكان أحد اخوتها قد هاجر وذهب هو الآخر فى جيش الــكونديه ، وتوفيت صغرى اخواتها وبقيت الــكبرى مقيمة مع أبيها فى الــكوخ المتواضع بالقرية .

وهكذا اضطرت شارلوت أن تلتمس المقام فترة من الزمن عند احدى قريباتها لأمها ، ريثما تجد وسيلة لطلب الرزق ، وهناك ، عند هذه العمة العجوز وجدت شارلوت من الحنان والعطف والحرية ما جعلها تشبع هوايتها الحبيبة ، فتقرأ ما شاءت لها الرغبة فى مؤلفات فولتير ، وروسو ، ورينال ، وتمضى جانبا من وقتها فى الاستماع الى عمتها وزائراتها العجائز وهن يتبادلن عبارات السخط على عقلية الجيل الجديد ...

ولــكن طائف الهناءة والهدوء الذى مر بشارلوت فى تلك الايام لم يطل المقام ، فقد حدثت فى القرى المجاورة حوادث دامية بين الحرس الوطنى من ناحيــة ، وبين طائفة من الاهلين كان من نتيجتها القبض على عمــدة القرية وعدد من القســـاوسة والراهبـات ، وقد رأت

شارلوت فى هذه الحوادث صورة مصغرة لما يجرى وما ينتظر أن يجرى فى أرض وطنها من أحداث جسام ، فكتبت الى احدى صديقاتها تقول :

« . . . انظرى الى وطننا ، فرنسا المسكينة وقد سلمت الى أيدى أولئك الاوغاد الذين يسوموننا كل هذا العذاب ، ان الله وحده يعلم متى يقف هذا كله .. اننى ارتعد فزعا ... ان أولئك الذين كان مفروضا ان يمنحونا الحرية قد ذبحوها ... انهم مجرد سفاحين ... فلنحزن على مصير فرنسا المسكينة »

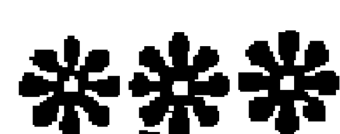
وبهذا الشعور المرهف ، وهذه المثالية النادرة ، اخذت شارلوت تتابع أنباء وطنها فى اسى وصمت ، وفى قلق يزداد ويتضخم بتعاقب الكوارث على وطنها المسكين الذى وقع فريسة الاحقاد والاطماع والنزوات والشهوات . وقد هالها وروعها أن شخصا بعينه يكاد يستأثر بالنصيب الاوفر فى كل ما يقع فى يدها من نداءات ، وشتى ألوان التحريض على الفوضى والانقسام ، وكان هذا الشخص المستهتر البغيض هو مارا .

ولم يكن هذا الشعور وقفا على شارلوت كورداى دون سواها ، بل كان عقيدة عامة عند الناس ، حتى لقد استقر فى أذهانهم ان مارا هو حزب الجبل ، أو ان جميع أعضاء الحزب على غراره .

وقد وجدت شارلوت مزيدا من الغذاء لحقدها ونقمتها على مارا حينما استقر راى الجيرونديين على اتخاذ كايان مركزا لنشاطهم ، فذهبت لزيارة النائب الشاب المناضل الوسيم باربارو ، وكان أن استقبلها بما كان مشهورا عنه من رقة وفروسية أصيلة ، وراح يشرح لها تفاصيل مثيرة عما يلقاه هو وزملاؤه الجيرونديون من عنت حزب الجبل وطغيانه الذى

لا يعرف حدا من الحدود .

وهكذا استقر في ذهن شارلوت ، في براءة ملائكية ، وفي وطنية مثالية ، أنها تستطيع أن تضرب ضربة واحدة تقطع بها حبل الارهاب الذي يحيط بعنق وطنها الجريح وتمثلت لها الضربة الحاسمة في شيء واحد لم تعد تفكر في شيء سواه .. هو أن تقتل مارا ..



وبدأت شارلوت تدبر خطة التنفيذ ، في عزم لاتنقصه السرعة ، وفي ترتيب لا تعوزه الدقة ، وفي تكتم لا يتفق مع المألوف عن طبيعة النساء ..

وقد رسمت خطتها في أول الامر على أساس الانقضاض على فريستها في مكان عام ، فيكون مصرعه ومصرعها في وقت واحد مشهدا تاريخيا لاينسى على مر الزمان . ولكن الظروف أرغمتها على أن تعدل عن هذه الخطة ، وتنتهج خطة أخرى تقوم على المراوغة والاحتيال، خلافا لما يلائم طبيعتها واستقامة خلقها .

وقد بدأت شارلوت بالتنقل بين القرى المجاورة لتوديع صديقاتها بدعوى اضطرارها للسفر في رحلة لم تحدد مكانها ، وقصدت الى دار عمتها العجوز فاحرقت جميع الصحف والنشرات والاوراق التي قد تكون سببا في ايقاع الاذى بأحد من معارفها وأصدقائها . ثم واجهت أشق واجباتها وهو الاعتذار لوالدها الذي لم تقو على مواجهته ولم تجد بدا من مخادعته ، فكتبت اليه خطابا قالت فيه :

« انني مدينة لك بطاعتي ، يا أبي العزيز ، ومع ذلك أراني مضطرة للسفر دون استئذانك ، واني لراحلة دون أن أراك ، تفاديا لما يسببه ذلك من الم لي لا أطيقه ، انني ذاهبة الى انجلترا ، لانني لا أظن

ان احدا يستطيع ان يعيش سعيدا هادئا فى فرنسا قبل ان ينقضى زمن طويل . اننى أضع هذا الخطاب فى صندوق البريد فى اللحظة التى ارحل فيها ، وحين يصلك أكون قد غادرت البلاد ، ان السماء قد ابت علينا متعة العيش معا ، كما أبت علينا غير ذلك من المتع ولعلها تكون أشد رفقا بوطننا — وداعا يا أبى العزيز ، قبل أختى نيابة عنى ، ولا تنسنى ... »

وبعد ساعة واحدة كانت شارلوت فى طريقها الى باريس ، وهناك نزلت بفندق من الدرجة الثالثة أو الرابعة ، وهناك أعدت نداء حارا مؤثرا الى مواطنيها جاء فيه :

« الى متى أيها الفرنسيون التعساء يستهويكم الخلف والانقسام . لقد طالما آثر زعماء الاحزاب وغيرهم من الاوغاد مصالحهم الشخصية على الصالح العام . ففيم اذن أيها الضحايا المساكين يقتل بعضكم بعضا فى حين أنكم اذ تبيدون أنفسكم انما تعينون على اقامة صرح طغيانهم على صدر فرنسا المحطم ؟ .. »

« اى فرنسا . . . ان سعادتك رهن باحترام القانون ، ولكننى لا أخالف أى قانون اذ اقتل مارا .. انه اذ استحق سخط العالم أجمع ، قد خرج من حظيرة القانون . . . »

« اى وطنى العزيز . . . ان الكوارث التى تنزل بك تمزق قلبى اربا اربا ولست أملك الا أن أهبك حياتى . . . وانى لأشكر السماء على ما وهبتنى من نعمة التصرف فيها . . . »

« فليكن رأسى محمولا على الاسنة فى شوارع باريس ، ايذانا بانطلاق أصدقاء القانون أجمعين ... وليشهد حزب الجبل الذى يهتز ويترنح بالفعل ،

كيف يكتب بدمى وثيقة انهيـــــاره ، فلأكن انا آخر ضحاياهم وسيعترف العالم الذى آخـذ بثـأره اننى استحق تقدير الانسانية . . . »

« أيها الفرنسيون :

ـ لئن اخفقت فيما انتويت ، فاننى على الاقل قد هديتكم الى سواء السبيل . . . انكم لتعرفون أعداءكم فانهضوا ، وسيروا ، واضربوا ضربتكم الحاسمة ...»

وفى صبيحة السبت ١٣ يوليو سنة ١٧٩٣ قصـــدت شارلوت الى دار مارا ، وطلبت مقابلته والحت فى ذلك مدعية ان لديها انباء هامة جدا تريد ابلاغها اليه ... ولـكن حارسة الباب ابت عليها ما تريد ، فلما افلتت منها وجدت نفسها امام خليلة مارا ، سيمون افـــرار ، وهذه بدورها حالت بينها وبين الدخول على مارا .

وعندئذ عادت شارلوت أدراجها الى الفندق وكتبت الى مارا الخطاب التالى :

« باريس : ١٣ يوليه ، العام الحادى عشر للجمهورية

« أيها المواطن :

« لقد وصلت لتوى من كايان ، وان حبك لوطنك ليدعونى الى افتراض انك ستتلهف على ســــماع انباء الحوادث التعسة التى وقعت فى ذلك الجزء من الجمهورية . . . ولهذا ســأحضر الى منزلك فى نحو الساعة الاولى « بعد الظهر » فأرجو التفضل باستقبالى والاذن لى بمقابلتك دقيقة واحدة ، لاننى سأهيىء لك الطريق لتقديم خدمة كبرى الى فرنسا »

مارى كورداى

ولم تذهب شـــارلوت فى الموعـد ، بل تأخرت الى المساء ، وارتدت ملابسها فى عنـاية اخذت من وقتها ومن تفكيرها قدرا أكبر مما تعودته ، وكأنما أرادت أن

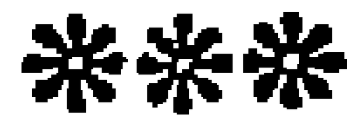
ترمز الى طهارة دوافعها فارتدت « فستانا » ناصع البياض ، وأضافت اليه « شالا » من الموسلين غطت به صدرها وعقدته من الخلف عند وسطها ، واخفت بين ثناياه الخنجر والنداء الموجه الى مواطنيها .

وقد تلقى مارا خطاب شارلوت فى منتصف الساعة الثامنة من مساء اليوم نفسه . وبينما كان يتلوه كانت شارلوت تكافح عند الباب لاقناع حارسة الباب بالسماح لها بالدخول ، وسمعت « سيمون افرار » بالضجة فخرجت من غرفة مارا ، ثم عادت بعد توسل شارلوت لتستأذنه فى ادخالها ، وعادت فى الحال فقادتها الى الغرفة التى كان يقيم فيها .

وكانت الغرفة رثة المنظر ، قليلة الاثاث ، ضعيفة الاضاءة ، ذات أرض من البلاط الذى يشبه الطوب . وقد تناثرت على أرضها بعض أعداد جريدة « صديق الشعب » ويتوسطها الحمام ، وقد وضعت بجانبه قطعة من الخشب تقوم مقام المنضدة ، وتحمل المحبرة وزجاجة الدواء ، كما وضعت لوحة من الخشب بعرض الحمام ليستند اليها مارا فى كتابة ما يريد أثناء الفترة التى يعالج نفسه فيها بالجلوس فى الحمام .

واقتربت شارلوت من الحمام بدعوى الادلاء بالمعلومات الخطيرة التى زعمت انها تحملها ، وبدأت بالفعل تروى على مسامع مارا قصة عصيان فى كايان قالت : ان سبعة عشر نائبا يتزعمونه وينظمون قوة من الجيش للمسير الى باريس وتخليصها من الفوضويين . فطلب منها مارا ان تذكر أسماء النواب ، ومضى هو يسجلها ويقول كلما كتب احدها : « الى المقصلة » .. وصمت لحظة ثم قال : « حسنا ... سأبعث بهم جميعا الى المقصلة فى باريس بعد أيام .. »

وفى هذه اللحظة كان الاشمئزاز والاستفزاز قد بلغا مداهما فى نفس شارلوت فاستجمعت شجاعتها ، وانقضت على السكين بيديها ، واغمدتها الى النصل فى ثديه الايمن ، فصاح : « النجدة ياحبيبتى ، النجدة » ... وسقط جثة هامدة قبل أن يتمكن أحد من اسعافه أو نقله من مكانه .



وطال استجواب شارلوت ، وحوكمت وحكم باعدامها ، فلم تخنها شجاعتها لحظة واحدة طوال التحقيق أو المحاكمة ، وعندما سمعت الحكم باعدامها التفتت الى محاميها « شوفو ديلاجارد » وقالت له فى لهجة هادئة تسيل رقة وعذوبة :

« سيدى ... اننى اريد أن أشكرك أجزل الشكر لدفاعك عنى بشجاعة وبأسلوب يليق بكلينا ... ان هؤلاء السادة « مشيرة الى القضاة » قد حكموا بمصادرة ما أملك ... ولكنى أريد أن أقدم لك أقوى دليل على عرفانى بالجميل ، فاطلب منك أن تسدد الديون المستحقة على للسجن ، وانى لأعتمد فى ذلك على كرمك » .

وقد نفذ المحامى هذه الوصية بأمانة تامة ، وسدد للسجن ستة وثلاثين جنيها فى اليوم التالى لأعدامها .

إبراهام لنكولن



« ... علينا ، نحن الاحياء ، أن نكرس أنفسنا لانجاز المهمة الضخمة الباقية امامنـــا ـ فلنستمد من هؤلاء الشهداء الكرام مزيدا من الاخلاص لذلك الهدف الذى بذلوا فى سبيله هنا أوفى قسط من التضحية ـ ونعاهد أنفسنا هنا على الا نسمح بأن يكون الصرعى قد استشهدوا عبثا . فيشهد هذا الشعب فى رعاية الله مولدا جديدا للحرية ، ولا يزول عن وجه الارض حكم الشعب ، بالشعب للشعب » !

ابراهام لنكولن

هذه الـكلمات الخالدة ، التى حملت فى ختامها أدق تعريف للديمقراطيـــة ـ « حكم الشعب ، بالشعب ، للشعب » ـ هى جزء من خطاب ألقاه لنكولن بوصفه رئيسا للجمهورية الامريكية فى الاحتفـــال بدفن رفات شهداء معركة جيتسبرج التى بلغت ذروتها فى ٤ يولية سنة ١٨٦٣ ، وانتهت يومئذ بانتصـــار قوات الشمال ضد قوات الجنوب . أما الاحتفال فقد أقيم فى نوفمبر سنة ١٨٦٣ ، وكانت أعباء الحكم ، وتطورات القتـــال المحتدم بين الشمال والجنوب تحمل الرئيس الامريكى على الاعتذار من عدم اســتطاعته الحضور بنفسه فى معظم الاحتفالات التى يدعى اليهـــا . ولــكنه كان قد تلقى خطابا من أحد كبار رجال الاعمال فى بوسطن ، قبيل هـــذا التاريخ ، يقول فيه : ان خطب الرئيس وتصريحاته حول تحرير العبيد قد اكسبته تأييد الرأى العام فى الداخل والخارج ، ولهذا يقترح على الرئيس انتهاز أول فرصة ليعلن : « ان الحرب ليست حرب

الشمال ضد الجنوب ، بل هى حرب الشعب ضد الاستقراطية »

وقد أتاحت الظروف للرئيس الامريكي أن يتكلم فى احتفال جيتسبرج فاذا به يلقى الخطاب الذى اختتمه بهذه الكلمات ، التى بلغت حد الاعجاز ببساطتها المطلقة . ولم يزد الخطاب عن خمسة وعشرين سطرا ،. وقد فرغ لنكولن من القائه قبل أن ينتبه الحاضرون الى انه قد بدأ يلقيه ... ولهذا لم يصفق له الا عدد قليل هم الذين اتيح لهم الانصات فى اللحظات التى استغرقها الالقاء ... وجاء تصفيقهم متأخرا ، لانهم لم يتنبهوا الى أن الخطاب قد انتهى بهذه السرعة !

وقد يروق لنا نحن الصحفيين أن نتساءل : كيف نشرت الصحافة يومئذ هذا الخطاب الذى أصبح أشهر خطب لنكولن فيما بعد ، وبماذا علقت عليه ؟ ويكفى فى هذا المقام أن نذكر ان معظم الصحف اليومية الكبرى نشرته فى مكان غير ظاهر ، ولكن الصحف الاسبوعية الاقليمية أبرزته لقصره الذى يتناسب مع قلة صفحاتها واما تعليقات الصحف فقد تفاوتت طبقا لاختلاف ألوانها بين مؤيدة ومعارضة ، ومن ذلك ان جريدة « شيكاغو تيمس » وهى تنتمى الى الحزب الديمقراطى المعارض ، كتبت تقول تعليقا على الخطاب :

« ان جبين كل أمريكى لابد أن يندى بعرق الخجل وهو يقرأ العبارات السخيفة الساذجة التافهة التى ألقاها ذلك الرجل الذى لا مناص من الاشارة اليه عندما يسألنا الاجانب المثقفون عن رئيس جمهورية الولايات المتحدة »

وهكذا يكتب التاريخ ! ..

على ان أعجب ما فى تاريخ ابراهام لنكولن الذىخلعوا

عليه فيما بعد ألقابا عدة منهـا : « المحرر الاعظم » و « الاب ابراهام » و « الشهيد » و« منقذ الاتحاد» ان هذا التاريخ يكاد يتركز فى أربع سنوات تبدأ منـذ انتخابه أو على الاصح تسلمه زمام السـلطة كرئيس لجمهورية الولايات المتحدة الامريكية فى مارس سـنة ١٨٦١ ، وتنتهى باغتياله فى مقصورة بمسرح فورد فى مساء يوم ١٤ أبريل سـنة ١٨٦٥ . وفى نهاية هـذه السنوات الاربع لا قبلها بيوم واحد سجل التاريخ فى أخلد صفحاته « ان الديمقراطية قد اختـارت بمحض الصدفة أعظم رجل فيها ليقودها فى أحرج فترة من حياتها » كما قال أحد مؤرخى لنكولن فى العصر الحديث.

أما السنوات الخمسون أو الاحدى والخمسون التى عاشها لنكولن قبل انتخابه لرئاسة الجمهورية الامريكية فلم تحمل فى اية مرحلة منها دليلا يغرى أحدا بالتنبؤ له بالعظمة التى ارتفع اليها فى أعين مواطنيه وفى أعين الاحرار فى كل مكان وفى كل حين .

ولد ابراهام لنكولن فى يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٠٩ ، فى دار خشبية متواضعة بالقرب من مدينـة هودجفيل بولاية كنتكى ، من أب مهاجر فقير يشتغل بالزراعة ، وأم لعلها كانت بنتا غير شرعية لامرأة رقيقة الحال ، والى هذه الام يرجع الفضل فى تعليمه القراءة والكتابة رغم نفور أبيه من العلم والتعليم ، اذ كان أميا جاهلا يدهش للذين يضيعون وقتهم فى طلب العلم ، وكان يقول عن ولده عندما شب عن الطوق :

ـ انه لايزال يخدع نفسه بالتعليم ، وقد حاولت جهدى أن امنعه، ولـكن هذه الفكرة السخيفة رسخت فى رأسه ولا سبيل لاخراجها منه !

ورغم وفاة والدة لنكولن وهو بعد فى التاسعة من

عمره فان رغبته فى الدرس والمطالعة ظلت مطردة مع الايام ، وكان من حسن حظه ان زوجة أبيه الثانية كانت على عكس أبيه ، حريصة على تشجيعه واغرائه بالمزيد من الدراسة والتعليم . ولم يكن هو على كل حال بحاجة الى من يدفعه الى طلب العلم والاستزادة من الاطلاع ، فقد كان شديد الميل الى المطالعة حتى فى أوقات عمله بالحقل ، أو فى أوقات نومه فى الليل ، وان يكن مجموع فترات دراسته فى خمس مدارس تنقل بينها لم يزد على عام واحد .

وقد ظل ابراهام لنكولن يعيش مع أبيه وزوجة أبيه واخوته تحت سقف واحد حتى بلغ الحادية والعشرين من عمره ، فترك دار أبيه ليكسب قوته بكد يده . وبدأ حياته كاتبا فى محل تجارة بقرية « نيو سالم » بولاية الينوى . وفى هذه البلدة بدأ لنكولن يشتغل بشئون السياسة ، فرشح نفسه لعضوية المجلس التشريعي بولاية الينوى ونشر فى جريدة « سانجامو جورنال » برنامجا للاصلاحات المحلية التى يطلب انتخابه على اساسها ، وفى ختام هذا البرنامج يقول :

« اننى شاب مجهول من كثيرين منكم ، ولدت »
« ونشأت فى بيئة جد متواضعة ، ليس لى أقارب »
« من الاغنياء أو المشاهير يقدموننى اليكم ، ولكن »
« مصيرى يعتمد كل الاعتماد على أصوات ناخبى »
« هذه المقاطعة ، فاذا انتخبونى فقد اسبغوا على »
« فضلا سأحاول أن أرده ، بالعمل المتواصل ، »
« ولكن اذا رأى هذا الشعب الطيب بحكمته أن »
« يبقينى فى الصفوف الخلفية ، فقد اعتدت »
« الصدمات الى الحد الذى لم أعد معه أشعر »
« بكثير من المرارة »

وقبل أن تجرى الانتخابات تطوع لنكولن فى الحرب ضـد الهنود الحمر ، ولم يشترك فى اية معركة طوال هذه الحرب ، ولـكنه كسب منهـا شيئا من الخبره وبعض المعلومات التى أعانته اثناء رئاسة الجمهورية على مناقشة قواده العسكريين فى حرب تحرير العبيد بين الشمال والجنوب .

ولما وضعت جرب الهنود الحمر أوزارها عاد لنكولن الى العمـل الحر البسيط فافتتح متجرا صـغيرا مع شريك له يدعى بيرى ، ولـكن المتجر لم يلبث أن أغلق أبوابه لان بيرى كان مدمنا للخمر بقدر ما كان لنكولن مدمنا للقراءة ... وقد خرج لنكولن من هذه التجربة بدين ظل يسدده خمسة عشر عاما كاملة .

ويبدأ الحظ يبتسم فى وجه لنكولن سنة ١٨٣٤ ، اذ انتخب عضـوا بالمجلـس التشريعى ، وبقى محتفظـا بالعضـوية ثمانية أعوام كسب خلالهـا خبرة بشئون السياسة وما تستلزمه من دراية وحنكة ، ولم تمض سنتان على انتخاب لنكولن بالمجلس التشريعى حتى كان قد درس القانون ، وحصل على شهادة تجيز له الاشتغال بالمحاماة ، وانتقل سنة ١٨٣٨ الى مدينة سبرنجفيلد التى أصبحت بعد عامين عاصمة الينوى .

وفى سنة ١٨٤٦ خطا لنكولن خطوة واسعة فى طريق النجاح ، اذ انتخب عضوا بمجلس النواب الامريكى عن دائرة الينوى ، ولـكنه اتخذ موقفا ينم على شـجاعة فائقة فى الرأى ، لولا انه أفقده رضى الناخبين ، وذلك بمعارضته فى حرب الولايات المتحدة ضـد المكسيك ، وكانت نتيجة هذا الموقف انه فى نهـاية مدة عضـويته الاولى وهى سنتان ، لم يجد مناصا من اعتزال السياسة والعودة الى الاشتغال بالمحاماة التى كان قد نجح فيهـا

وذاع صيته لا كمحام بارع فحسب ، بل كانسان حريص على اكرم تقاليد مهنته ، فكان ينصح الناس بتسويه خلافاتهم صلحا اذا وجدوا سبيلا لتفادى المنازعات القضائية ، وكان يرفض المرافعه اذا لم يقتنع بعدالة القضية ، وكان يصر على ان يتقاضى اقل ما يمكن من الاتعاب .

وقد ظل لنكولن منقطعا لعمله فى المحاماة ، ولكنه لم ينقطع قط عن متابعة المناقشات والمجادلات التى كانت تثار حول الشئون العامة بين الحين والحين ، ولا سيما حول تحرير العبيد ، ومن هذا القبيل ذلك الجدل الذى احتدم بشأن قضية « دريد سكوت » . وكان « دريد سكوت » هذا عبدا من الارقاء تنقل مع سيده من احدى الولايات التى تبيح الرق الى ولاية الينوى ثم الى ولاية ويسكونسين ، وكلتا الولايتين لا تبيح الرق ، فطلب العبد أن يتحرر من عبوديته، استنادا الى أنه ما دام قد دخل ولاية يحرم فيها الرق فان الرق يسقط عنه بمجرد دخولها ، ولكن المحكمة العليا فى ميسورى حكمت على العبد باستمرار عبوديته ، بحجة انه ما دام قد عاد مختارا الى ولاية تبيح الرق فانه بذلك يعود عبدا كما كان ! ! !

ولم يطق لنكولن المحامى أن يمثل دور الشيطان الاخرس بالسكوت على هذه المأساة ، فراح يصول ويجول دفاعا عن وجهة نظر العبد ، ويهاجم النظرية الفاسدة التى تزعمها الشيخ الرجعى الغليظ القلب ستيفن دوجلاس ممثل ولاية الينوى — فى مجلس الشيوخ — وهى نظرية تقوم على ان من حق السكان البيض فى اية ولاية ، ومن حقهم وحدهم ، أن يقرروا ما اذا كان من مصلحتهم اباحة الرق أو تحريمه فى

ولايتهم ، وعلى هذا الاساس تعتبر مسألة الرق مسألة محليه تخضع لاعتبارات اقتصاديه او اجتماعية محض، ولا شأن لها بالمبادىء العامة والنظريات الانسانية او الدينية ، وبالتالى لا يحق لأحد خارج الولاية أن يتدخل فيها ! !

وقد تمخضت حركة السخط على هذا المنطق الرجعى الزائف عن قيام حزب جديد يضم جميع الثائرين ضد حركة دوجلاس ومناصريه وسمى هذا الحزب «بالحزب الجمهورى » ، وقد أعلنت هذه التسمية فى مؤتمر كبير عقد بمدينة جاكسون بولايه متشيجان فى ٦ يوليو سنة ١٨٥٤ .

***

وفى خلال هذه المعركة المحتدمة حول الرق والرقيق، أعلن لنكولن فى خطبه وبياناته انه لا يعارض قيام الرقيق فى الولايات التى يوجد فيها ، ولكنه يعارض التوسع فى الرق أو اباحته فى ولايات جديدة ، وكانت خطة لنكولن فى هذا الصدد هى خطة التدرج فى تحرير العبيد نزولا على المقتضيات العملية التى يمليها قيام الرق فى ولايات الجنوب التى تزرع القطن بأيدى الارقاء .

وبعودة لنكولن الى الانغماس فى ميدان السياسة سنة ١٨٥٤ ، بدأت المرحلة التى انتهت بترشيحه وفوزه برئاسة الجمهورية سنة ١٨٦٠ ، وكأنما شاء القدر أن يندبه لمواجهة أخطر أزمة فى تاريخ أمريكا ، ثم ينهى حياته بانتهاء هذه الازمة ، فهو لم يكد يتسلم زمام الرئاسة فى مارس سنة ١٨٦٠ ، حتى نشبت الحرب الاهلية بين الشمال والجنوب فى شهر أبريل الذى يليه ، اذ كانت الولايات الجنوبية ، وهى ولايات القطن المتمسكة بالرق، قد أعلنت انفصالها وتأليف «الحكومة الاتحادية»

فى الجنوب ، ولم يسع لنكولن الا أن يرفض تمزيق بلاده ، فأعلنها حربا لم تهدأ الا بتسليم قوات الجنوب وعودة الوحدة الى الولايات المتحدة الامريكية ، وفى ابان هذه الحرب صدر اعلان تحرير العبيد فى أول يناير سنة ١٨٦٣ .

وكان من أقسي مفارقات القدر إن لنكولن تسلم الرئاسة للجمهورية كما قلنا فى مارس سنة ١٨٦١ ، وفى الشهر التالى ـ أىشهر أبريل سنة ١٨٦١ـ اندلعت نار الحرب الاهلية ...

وبعد أربع سنوات لا تزيد ـ أى فى شهر مارس سنة ١٨٦٥ ـ عاد لنكولن فارتقى منصب الرئاسة للمرة الثانية ، وفى الشهر نفسه انتهت الحرب الاهلية بسقوط مدينة رتشموند واستسلام الجنرال قائد الجنوب للجنرال جرانت قائد الشمال ...

وفى الشهر التالى لقى بطل تحرير العبيد ومنقذ الوحدة الامريكية مصرعه بيد ممثل مخبول من أهل الجنوب يدعى « بوث » فى منتصف شهر أبريل سنة ١٨٦٥ !

***

وهكذا خط القدر آخر سطر فى حياة انسان عظيم ، صعد الى قمة العظمة حاملا راية العدالة والحرية والتسامح والمساواة والديمقراطية .

وانه ليعز على الذين يحنون رءوسهم اجلالا وتكريما وتبجيلا لهذا الامريكى الحر العظيم أن ينظروا الى أمريكا اليوم ، وبعد مضى تسعين سنة على استشهاد لنكولن، فيجدوا التفرقة البغيضة قائمة حتى الآن بين السود والبيض حتى فى ابسط الحقوق والمظاهر ، وليست مأساة ادماج السوذ والبيض فى مدارس «التيل روك»

الا صورة أخرى من صور هذه التفرقة الشائنة ، وقد قدر لكاتب هذه السطور أن يشهد وأن يسمع الكثير عن هذه العقلية الرجعية البغيضة : أثناء طوافه بأمريكا فى سنة ١٩٥١ ، وكم كان يحز فى قلبى ويثقل على أذنى ونفسى أن أسمع خلال هذه الرحلة الى كثيرين من الامريكيين المثقفين فى شيكاغو ونيواورلينز ولويفيل ودالاس وغيرها من المدن الكبرى ولاسيما فى الجنوب ، فأجدهم يرددون عبارة « الحى الطيب » أو «النظيف» وهم يعنون بذلك الحى الذى لا يباح للسود أن يقيموا فيه الى جانب سكانه البيض !

ومع ذلك فما أبعد الفارق بين حالة السود فى أمريكا اليوم ، وبينها منذ تسعين أو مائة عام ...

كمالا



قرينة نهرو وحبيبته
وشريكة جهاده وسجنه

ان المأساة التى خطها القدر فى حياة نهرو وزوجته كمالا ، تفوق أعنف مآسى الحب التى رواها التاريخ أو تفتق عنها خيال الشعراء والادباء فى أى عصر من العصور ، واذا لم يكن بين أيدينا مرجع خاص عن تاريخ حياتها فان لدينا اطرافا من سيرتها العطرة فيما سجلته براعة زوجها الساحر فى كتابه عن تاريخ حياته ، وكتابه الآخر « الكشف عن الهنود » ولكنه لسوء الحظ لا يذكر هنا وهناك شيئا عن فترة ما قبل الزواج ، بل يطالعنا لاول وهلة بحديث طلى عن زواجه واحدى مغامراته فى جبال هيمالايا ، فيقول ان زواجه تم فى مدينة دلهى سنة ١٩١٦ ، فى عيد الزهور الذى تحتفل به الهند ايذانا بقدوم الربيع ، ومن عجائب المصادفات انه فى هذا العام نفسه قدر لنهرو ان يلتقى بالرجل الذى أصبح هو فيما بعد أخلص تلاميذه وخليفته بعد مماته ـ غاندى ـ ومن المفارقات ان نهرو ورفاقه من الشباب الهندى الوطنى فى ذلك الحين لم يكونوا راضين عن غاندى لانصرافه عن العمل السياسى ، ورفضه الاشتراك فى نشاط المؤتمر الوطنى أو قضية الهند الوطنية على وجه عام ، بل كان يركز اهتمامه فى قضية الهنود فى جنوب افريقيا ، وان كانت شجاعته فى قيادة الحركة ضد

حكومة جنـوب افريقيـا قـد اكسـبته عطف الهنود وتقديرهم فى كل مكان .

ونعود الى موضوعنا وهو زواج نهرو ، فنقول : انه بعد زواجه من كمالا بمدينة دلهى سنة ١٩١٦ ، ذهب مع أسرته لقضاء بضعة أشهر من الصيف فى كشمير ، أجمل بقاع الهند على الاطلاق ، وهناك حاول هو وزوجته أن يعبـرا جبـال الهيمالايا لزيارة كهف تاريخى معين فسقط فى حفرة عميقة مغطاة بالثلج وكاد يدفن حيـا لولا انه تعلق بحبل ، وامكن انقاذه بعد جهد جهيد .

واضطرا بعد ساعات طويلة من تسلق الجبال وسـط الجليد . وبعد ان وصلا الى ارتفاع ستة عشر الف قدم ؛ ان يعودا من حيث اتيا اذ تعددت الحفر واتسعت ، رغم قرب المسافة التى اصبحت تفصلهما عن الكهف التاريخى الذى يقصدانه .

وقد سـارت الحياة هادئة هانئة بين الزوجين حتى هبت عواصـف الحركة الوطنيـة عقب الحرب العالمية الاولى ، وبدأ الهنود يطلبون مثـل ما طلبت مصر من حقوق فى الحرية والاستقلال ، بينما صمم الاسـتعمار البريطانى هنا وهناك على قمع هـذا النشـاط الوطنى بكل وسيلة فى يده ، فامتـلأت السجون والمعتقلات ، ودخل نهرو السجن لاول مرة فى سنة ١٩٢١ ، متهما بتهم عديدة ، منها التحريض على الثورة ، حتى اذا وافت سنة ١٩٢٥ ، مرضت كمالا نهرو مرضا خطيرا فى الربيع ، وظلت طريحة الفراش فى مدينة لنكاو شهورا عديدة ، ورئى من الضرورى أن تنقل الى سويسرا للعلاج ، فرحب نهرو بالفكرة ليخرج هو ايضا من الهند ويرقب الحوادث عن بعد ، لعله يكون لها صورة اوفى ، وابحرت الباخرة من ميناء بومباى الى البندقيـة تقل نهرو وزوجتـه

المريضة وابنتهما الوحيدة انديرا ، وشقيقته فيجايا لاكشمى ، وزوجها المحامى الشاب وانجيت بانديت .

واقام نهرو مع زوجته فترة فى جنيف ثم فى مصحة جبلية فى هونتانا ، فلما طرأ على صحتها بعض التحسن سافرا معا الى فرنسا وانجلترا والمانيا ، وفى سنة ١٩٢٧ ذهب والده الزعيم الهندى الكبير موتلال نهرو الى أوربا ، فاستقبله جواهر لال فى البندقية وبعد أن أقاموا هناك بضعة اشهر ذهبوا جميعا الى موسكو فى زيارة استغرقت ثلاثة أيام شاهدوا خلالها الاحتفالات بالذكرى العاشرة للثورة الروسية ، ثم أبحر نهرو وزوجته وابنته وأخته من ميناء مرسيليا عائدين الى الهند فى شهر ديسمبر من العام نفسه ، بعد اقامة فى أوربا امتدت سنة وتسعة أشهر ، تحسنت خلالها صحة كمالا ، وان لم تشف تماما ، وهدأت نفس نهرو فأقبل على نشاطه السياسى بعزم قوى ، وسرعان ما قامت حركة العصيان المدنى وتوالت حوادث الهجوم على الجموع المسالمة ، وزج بالالوف منهم فى السجون ، وقبض على نهرو مرة بعد اخرى وألقى به فى غيابة السجن ، فاحتملت كمالا هذه المحن المتوالية على زوجها بصبر وشجاعة رغم ضعف صحتها ، وبينما كان نهرو فى السجن مع كثيرين من زملائه ، جاءتهم الانباء فى أول يناير سنة ١٩٣١ ، بالقبض على زوجته كمالا لأول مرة فى حياتها ... اذ كان الاحتلال البريطانى قد ضاق ذرعا بنشاط نساء الهند بعد اعتقال الرجال ، وكانت كمالا تقود الحركة بعد اتساع حركة الاعتقال فى « الله آباد » ، فلما قررت السلطة المستعمرة أن يمتد الاعتقال الى السيدات كان طبيعيا أن تكون هى فى مقدمة المعتقلات .

وكانت كمالا شـــديدة الاغتباط باعتقالها ، اذ كانت تتطلع الى اللحظة التى تلحق فيها ببقية مواطنيها فى السجون ، وقد بلغت روحها المعنوية ذروتها حين تقدم منها ساعة القبض عليها أحد الصحفيين وسألها عما اذا كانت لديها رسالة تود أن تنشر ، فأجابت من فورها قائلة :

« اننى سعيدة سعادة تفوق الحدود ، وفخورة »
« باقتفــاء خطوات زوجى ، وأرجو أن يحتفـظ »
« الشعب بالعلم مرفوعا عاليا »

ولـكن القبض على كمالا أزعج والد نهرو أيما ازعاج فهرول من كلكتا الى « الله آباد » ، رغم ضعف صحته وتقدم سنه ، ولما زار نهرو فى السجن فزع الابن لمـا شــاهد من تورم وجه أبيه وأدرك ان أيامه أصـبحت معدودة ، وفى ٢٦ يناير أفرج عن كمالا من سجن لكناو، وعن جواهر لال نهرو من سجن نايني قبــــل موعـده بساعات نظرا لتدهور صحة والده ، وقد توفى والده فعلا بعد عشرة أيام وكان الى جنبه غاندى ، صديقه القديم ، يرتل بعض الصلوات ، فهمس موتلال قائلا :

ـ اننى ذاهب سريعا ، أيها المهــاتما العزيز ، ولن اكون هنا لارى الاستقلال ، ولكنى أعلم انكم كسبتموه وستحصلون عليه فى القريب العاجل !

***

ولم يطل بقاء نهرو خارج السجن بعد وفاة والده ، اذ القى القبض عليه مرة اخرى وعاد الى سجن نايني ، وكان أشد ما ضايقه من العودة الى السجن فى هذه المرة هو الخوف من اصابة كمالا بصـدمة تذهب بالتحسن القليل الذى طرأ على صحتها ، وهـذا هو الذى حدث بالفعل ، الامر الذى دعا الى ارسال تقرير طبى عن حالتها

يوما بعد يوم ، فكان الطبيب يتصل بقسم البوليس تليفونيا لاملاء التقرير ، وهذا يتولى ارساله الى السجن ، اذ كانت التعليمات تمنع الاطباء من الاتصال بالسجن مباشرة ، وقد ظلت التقارير تصل على هذا النمط خلال اسبوعين ثم توقفت فجأة رغم التدهور المطرد فى صحة كمالا ، فبلغ الضيق بنهرو أقصى درجاته فى هذه الفترة العصيبة وبعد انقضاء شهر كامل على اعتقاله صحبه أحد ضباط البوليس من السجن فى زيارة قصيرة لزوجته وقيل له انه سيسمح له بمثل هذه الزيارة مرتين فى الاسبوع ، ولكنه انتظر الموعد القادم للزيارة دون ان يحضر أحد لاصطحابه ، ومر اليوم الرابع ، والخامس ، والسادس ، والسابع ، وهو ينتظر على أحر من الجمر فى غير طائل ، وجاءته الانباء فى الوقت نفسه بأن صحة كمالا تزداد سوءا على سوء ، وأخيرا ... جاء الوسطاء من هنا وهناك يعرضون عليه أن يتعهد ولو بصفة غير رسمية ، بالا يزاول اى نشاط سياسى خلال المدة الباقية من الحكم بسجنه ، فى مقابل الافراج عنه للعناية بصحة زوجته ولم يكن هو مشغولا بالسياسة ولا حريصا عليها فى تلك الايام بالذات ولكنه مع ذلك رفض فكرة التعهد المطلوب فى اباء وشمم ، مهما تكن النتائج ، فقيل له ان صحة كمالا تسير من سيىء الى اسوأ وان وجوده الى جانبها قد يرفع معنوياتها ويكون عاملا فاصلا فى رجحان كفة الحياة على الموت ، وعندئذ دار فى أعماق ضميره صراع رهيب بين الكرامة والواجب الوطنى والاعتبار الخلقى فى كفة وبين حياة زوجته وحبيبته وشريكة حياته فى الكفة المقابلة ، ومع ذلك فان الصراع لم يدم سوى لحظات عرف نهرو فى نهايتها أين ينبغى أن يكون قراره لا لينقذ كرامته ومبادئه فحسب ، بل لينقذ كمالا نفسها

من صدمة قاضية أيقن انها لا تلبث أن تصيبها اذا هو تهاون حتى في سبيل حياتها وانحنى امام ادارة السلطات البريطانية وتقدم اليها طائعا ذليلا وفى يده التعهد المطلوب !

وبعد أيام سمح له بأن يخرج لزيارتها مرة أخرى ، فوجدها فى فراش المرض ، لا تكاد تفيق من وطأة الحمى وكانت مشوقة الى لقائه ، ولكنها كانت تعلم أنه سيتركها ليعود الى سجنه ، فاكتفت بأن ابتسمت فى شجاعة وأومأت اليه أن ينحنى لتسر اليه بكلمة فىأذنه ، فلما انحنى همست قائلة :

ــ ما هذا الذى سمعته عن اعطائك تعهدا للحكومة ؟ حذار أن تعطى مثل هذا التعهد !

لقد كان هذا هو القرار الذى اتخذه نهرو بالفعل ، وكأنه يقرأ ما فى نفس شريكة حياته وجهاده ، فلا غرو اذا نزلت هذه الهمسة بردا وسلاما على قلبه المضطرم بالنارين : نار الوطنية ، ونار الحب ...

وقبل أن يعود نهرو الى السجن من هذه الزيارة ، رئى ان صحة كمالا تزداد اعتلالا فى هذا المكان ، ولهذا تقرر نقلها الى الجبل فى بلدة تسمى « بهوالى » وبعد ذلك بثلاثة أسابيع تقرر نقل نهرو الى سجن آخر قريب من هذا المكان ليستطيع زيارتها ، وفى طريقه الى السجن الجديد سمح له بقضاء بضع ساعات مع زوجته فاستشعر بعض الارتياح اذ لاحظ تقدما طفيفا فى صحتها رغم قصر المدة التى أقامتها فى الجبل ، وبعد شهر سمح له بزيارتها مرة أخرى ، واستمر يزورها بعد ذلك كل ثلاثة أسابيع ، وقد كتب نهرو يقول فى هذا الصدد :

« كانت هذه الزيارات القصيرة عزيزة جدا عندى وربما أيضا عندها ، وكان الاطباء يرفعون بعض قيود

الطعام فى يوم زيارتى ، كما كان يسمح لحديثى معها أن يستمر مدة طويلة الى حد ما ، لقـد كنا على الدوام يقترب أحدنا من الآخر ، وكنت أنتزع نفسى انتزاعا كلما حان موعد فراقى لها ، اننا لم نكن نلتقى الا لنفترق وكنت فى بعض الاحيان أتصور فى أسى وحسرة مجىء يوم يكون فراقنا فيه الى الابد »

ويذكر نهرو انه عندما ألقى القبض عليه فى فبراير سنة ١٩٣٤ بأمر من السلطات فى كلكتا : « صعدت كمالا الى غرفتنا لتجمع لى بعض الملابس ، فتبعتها لاقول لها كلمة الوداع ، واذا هى فجأة تتشبث بى ، ثم يغمى عليها وتسقط من فرط الاعياء والتأثر ، وكان هذا على غير عادتها ، اذ اننا روضنا انفسنا على ان ننظر باستخفاف وسرور الى هذه الاعتقالات المتكررة ، والا نوليها سوى أقل قدر من الاهتمام ، فهل طاف بها طائف من الالهام فعرفت مقدما ان هذا سيكون الى حد ما آخر لقـاء طبيعى بيننا ؟ »

ويستطرد نهرو قائلا :

ــ لقد حال بينى وبينها حكمان طويلان كل منهما يقضى بالسجن سنتين ، فى نفس اللحظة التى بلغت حاجة كل منا للآخر غايتها ، وهى اللحظة التى اقترب كلانا من الآخر اشد الاقتراب ، لقـد كنت أفكر فى هـذا خلال أيامى الطويلة فى السجن ، ومع ذلك فقـد كان الامل يراودنى فى انه لابد أن يأتى الوقت الذى يلتئم فيـه شملنا مرة أخرى ، ترى كيف كان حالها فى تلك الأعوام ؟ ان فى استطاعتى أن أحدس ولـكن حتى أنا لا أستطيع أن أعرف ، فلم تكن الاوضاع طبيعية خلال مقابلاتنا فى السجن ، أو خلال الفترات القصيرة خارج السجن ، لقد كان علينا أن نتصرف على أحسن وجه خشية أن

بسبب أحدنا ألما للآخر بالكشف عن جزعه ، ولكن كان من الواضح انها قلقة مضطربة بسبب أشياء كثيرة وانها لا تتمتع بشيء من هدوء البال ، وقد كان فى استطاعتى أن اقدم لها بعض العون ، ولكن ليس من السجن » !

وكانت حالة كمالا الصحية قد حتمت نقلها الى أوربا فى مايو سنة ١٩٣٥ ، لاستكمال علاجها ، فانقطعت بالطبع زياراته لها من سجن ألمورا ، حيث بقى هو لاستكمال مدة الحكم .

وبينما كان نهرو يحصى ما بقى له من ايام فى هذا السجن ، فيجدها خمسة أشهر ونصف شهر، يستطيع بعدها ان يذهب الى المانيا ليطمئن على زوجته وحبيبته اذ به يفاجأ مرة أخرى فى ٤ سبتمبر سنة ١٩٣٥ ، باطلاق سراحه ، واعلانه بوقف تنفيذ بقية العقوبة ، لان صحة كمالا تدهورت ودخلت فى مرحلة الخطر .

وانطلق نهرو من سجن ألمورا بالسيارة والقطار الى مسقط رأسه « الله آباد » فوصل فى اليوم التالى ، وبعد ظهر اليوم نفسه بدأ رحلته بالطائرة الى أوربا ، مارا بكراتشى ثم بغداد ، ثم القاهرة ، ومن الاسكندرية استقل طائرة مائية الى ميناء برنديزى ، ومنها ركب القطار الى يال فى سويسرا ، ثم استأنف رحلته بالسيارة الى المصحة التى تعالج فيها كمالا ، فى مدينة «بادنفيلر» بالغابة السوداء فى المانيا .

والآن ندع نهرو يتكلم مرة أخرى :

ـ كانت هناك نفس الابتسامة الشجاعة المألوفة على وجه كمالا عندما رأيتها ، ولكنها كانت من الضعف والوقوع فى قبضة الالم بحيث لم تستطع ان تتكلم كثيرا ، ربما أفادها حضورى لانها أصبحت أحسن قليلا فى

اليوم التالى وبضعة أيام بعده ، ولـكن الازمة استمرت ومضت تنزف معين الحياة منها فى بطء ، وقد خيـل الى ، لعجزى عن ترويض نفسى على فكرة موتها ، انها تتحسن ، وانها اذا اسـتطاعت ان تتغلب على هـذه الازمة فقد يكتب لها الشفاء ، وراح الاطباء ،كعادتهم ، يبعثون الامل فى نفسى ، وبدا لى ان حدة الازمة قـد انقضت ، وانها صمدت لها ، ومع ذلك فانها لم تتحسن قط الى حد إحتمال حديث طويل ، فكنا نتحدث بايجاز ثم أتوقف حالما الاحظ انها بدأت تتعب ، وكنت فى بعض الاحيان أقرأ لها ، وأذكر من الـكتب التى قرأتها لها على هذا النحو كتاب « الارض الطيبة » لمؤلفته بيرل باك ، وكانت ترتاح الى ذلك ، ولكن مطالعتنا فى الكتاب كانت تسير ببطء ...

وكنت فى الصباح والعصر أجر نفسى مشيا على قدمى من « البنسيون » الذى أنزل فيه بالمدينة الصغيرة الى المصحة ، حيث أقضى بضع ساعات معها ، وكنت ممتلئا بأشياء كثيرة أريد أن أحدثها بها ، ولـكننى كنت مضطرا الى ضبط نفسى ، كنا نتحدث قليلا فى بعض الاحيان عن الزمن الذى مضى ، وعن الذكريات القـــديمة ، وعن أصـــدقائنا فى الهند ، وكنا نتحدث أحيانا فى شىء من القلق عن المستقبل ، وما عسانا أن نصنع فيه ؟ وكانت رغم خطورة حالتها شـــديدة التعلق بالمستقبل ، كانت عيناها براقتين مليئتين بالحيـــاة ، وكان الاشراق عاده يعلو وجهها ، وكان الاصدقاء القليلون الذين يحضرون لزيارتها تعلوهم دهشة الفرح اذ يرونها تبـدو أحسن حالا مما كانوا يظنون ، لقد خدعوا بالعينين البراقتين والوجه الباسم ! »

وقد بلغت الخديعة الرهيبة بنهرو نفسه ذروتها بعد

ان نقلت كمالا الى مصحة اخرى في لوزان بسويسرا في أواخر يناير سنة ١٩٣٦ ، وخيل الى نهرو أن التحسن في صحتها يسمح له بالاستجابة الى نداء العمل الوطني الملح الذى يناديه في الهند ، فشاور كمالا في الامر فلم تمانع في سفره وان كان قد تبين له فيما بعد ان كبرياءها وحرصها على المصلحة العامة منعاها من رفض رغبته : وبينما هو يتأهب للسفر بالطائرة بعد أربعة أيام أو خمسة – اى فى ٢٨ فبراير – اذا بالطبيب يطلب اليه تأجيل السفر أسبوعا أو عشرة أيام ، فيحاول نهرو أن يستوضحه ولكنه يرفض ان يزيد شيئا على هذه النصيحة ، ولا يسع نهرو الا أن يؤجل سفره فى الحال ، ويحجز تذكرته للعودة فى طائرة تالية .

« وفى هذه الايام الاخيرة بدا ان تغيرا خفيا تسرب الى كمالا .. كانت حالتها الجسمانية على حالها ، فى حدود ما كنا نراه ، ولكن عقلها بدأ قليل الالتفات الى الاشياء المادية المحيطة بها ، فكانت تخبرنى ان شخصا ما يناديها ، أى انها ترى شخصا أو شكلا يدخل الغرفة بينما لم أكن أرى شيئا ..

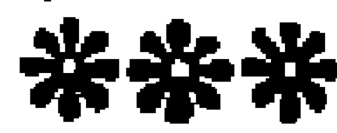
« وفى الصباح الباكر من يوم ٢٦ فبراير لفظت آخر أنفاسها ، وكانت انديرا « ابنتهما » موجودة ، وكذلك الصديق الوفى والرفيق المخلص الذى لازمها طوال تلك الشهور ، الدكتور أتال ..

« وجاء بعض الاصدقاء الآخرين من مدن سويسرا المجاورة ، فنقلناها الى مكان احراق الجثث فى لوزان ، وفى خلال بضع دقائق أصبح ذلك الجسد الرقيق ، والوجه الجميل الذى تعود أن يبتسم كثيرا فيحسن الابتسام ، أصبح هذا كله رمادا ، واحتوى اناء صغير تلك البقايا الفانية لهذه التى كانت تفيض بالحيوية ،

والاشراق ، والحياة » ..

وعندما توقفت الطائرة التى استقلها نهرو فى بغداد ، سلم الى مكتب التلغراف برقية الى الناشر الذى كان يتهيأ لاصدار ترجمة حياته بقلمه ، وفى هذه البرقية يطلب من الناشر أن يهدى الكتاب :

« الى كمالا التى لم يعد لها وجود » ! ..



هذه مأساة الفتاة الكشميرية الجميلة ، النحيلة ، الطموحة ، البسيطة ، المخلصة ، التي تزوجها نهرو منذ اربعين سنة ، وفقدها بعد عشرين سنة ، شاركته خلالها آراءه ، وكفاحه ، وسجنه ، وآلامه وآماله ، ومباهجه ، وأحزانه ، فكتب يقول :

« كنت اذا غبت عنها أياما أحس هدوءا فى البال كلما فكرت فيها ، وأتطلع فى لهفة الى اللحظة التى أعود فيها الى البيت .. »



وقد تركت كمالا بنتا وحيدة هى انديرا ، التى اصبحت الآن سيدة متزوجة من صحفى هندى معروف ، هو فيروز غاندى — وهو لا يمت بأية صلة من القرابة الى الزعيم غاندى — وقد انجبت منه ولدين . وهم — أى الام والولدان — يظفرون من نهرو رغم كل مشاغله بحنان تضرب به الامثال ، وكأنه يحمل عن نفسه وعن زوجته الراحلة أحب عبء يحمله الاب والجد ، ورب العائلة الحنون ...

جان جاك روسو



إن التفريط في الحرية معناه
إهدار وجود الإنسان
والتفريط في حقوق الإنسانية
.. بل واجباتها

روسو

لم أجد فى حياة أحد من أحرار التاريخ الذين قرأت لهم وعنهم عبقريا تجمعت فيه صنوف المتناقضات كما تجمعت فى حياه « جان جاك روسو » ...

وهب فرنسا مبادىء ثورتها الكبرى ، وطورد فى كل شبر منها كما يطارد المنبوذون ، المشردون !

ألهب بسياط يراعته ظهور الملوك والامراء والمترفين، وتقلب فى مراحل شتى من حياته فى ظل رعايتهم وعاش فى قصورهم ...

كان يسمى نفسه « الشخص الوحيد فى فرنسا الذى يؤمن بالله » وأجمعت الكنائس المسيحية على تكفيره واخراجه من حظيرتها !

خلف أروع مبادىء التربية ، وسجل فى اعترافاته انه ترك خمسة أطفال أنجبهم واحدا بعد الآخر ، على باب أحد الملاجىء تخلصا من نفقات تربيتهم ! !

وضع أدق النظريات السياسية والاجتماعية ، ومات مختل التفكير ، مضطرب النفس ، معــــذبا بجنون الاضطهاد !

***

ولد « جان جاك روسو » فى ٢٨ يونيو سنة ١٧١٢ فى مدينة جنيف بسويسرا ، وقد ظل طوال حياته

شديد الاعتزاز بمولده فى « مدينة وجمهورية جنيف »
وكان يوقع باسم «جان‌جاك روسو- مواطن من‌جنيف» ،
كما كان شديد الحرص على التمسك بحقوقه العامة
«كمواطن فى دولة حرة وفرد فى شعب متمتع بسيادته»
ولكنه رغم ذلك كان أشد تعلقا بفرنسا منه بسويسرا ،
وكان يعترف بذلك قائلا : « ان قلبه كان يخفق طربا
لاقل نجاح يصيبها ، فاذا أصابتها نكسة أو صدمة نالت
منه كما لو كانت قد أصابت ذات نفسه » وربما كان
من أسباب ذلك ان الدم الفرنسي جرى فى عروقه قبل
الدم السويسرى ، اذ كان أجداده مهاجرين من
البروتستانت الذين طردوا من فرنسا أيام الاضطهاد
الدينى ، ولعل الوراثة أيضا لعبت دورها فى مرض
الشعور بالاضطهاد الذى أودى بعقله فى السنوات الاخيرة
من حياته .

وكان أبوه « ايزاك روسو » من المشتغلين بصناعة
الساعات ، شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من أهل سويسرا
وكان رجلا طيب القلب ولكنه كان مغامرا ، قلقا ،
عنيفا فى تصرفاته ، شديد النهم الى القراءة ، ويعتقد
مؤرخو روسو أنه ورث عن والده صفتين على الاقل :
هما ، شغفه بالقراءة ، وحبه للتنقل من مكان الى مكان،
أما أمه « سوزان برنار » فقد دفعت حياتها ثمنا
لحياته ، وفارقت الدنيا بعد أن وضعته بأسبوعين ..

ويبدو أن جان جاك تعلم القراءة والكتابة واجادهما
فى سن باكرة جدا ، اذ كان يقرأ الروايات والقصص ،
ويسهر مع أبيه الليالى الطوال فى القراءة حتى الصباح.
وكان ذلك قبل أن يبلغ السادسة من عمره !

وهو يقول فى هذا الصدد :
« عندما بلغت السادسة وقع فى يدى كتاب التراجم

« لبلوتارك ، فحفظته عن ظهر قلب !.. وكنت قد
« قرات عددا كبيرا من الروايات ، فجعلتنى هـذه
« الروايات أسكب الدموع كالسيل المنهمر قبل أن
« أبلغ السن التى يولع فيهـــا القلب بالقصص
« والروايات ، وكان من أثر ذلك أن تكونت عندى
« ملـكة أخذت من ذلك الحين تقوى وتشتد ، وهى
« تذوق معانى البطولة وأساطير المغامرة والغرام ،
« وانتهى الامر الى حـد الاشـمئزاز من كل شيء
« لا يتفق مع مزاجى وخيالاتى »

وعنـدما بلغ جان جاك سن العاشرة وقع والده فى اشكال لم يجد ازاءه بدا من أن يختار بين أمرين أحلاهما مر : هما ، النفى ، أو السجن ، فاختار الاول ، وفر الى مدينة ليون بفرنسا تاركا ولده فى رعاية أخيه ، ولم يلبث جان جاك أن أرسل مع ابن خالة له فى مثل سنه الى مدينة « براسى » ليشرف على تربيتهما قسيـس المدينة مسـيو لامبرسييه ، وكانت تعيش مع هـذا القسيس شقيقة له فى الثلاثين من العمر ، سرعان ما أغرم بها الصبى روسو ، دون أن تلتفت هى اليه أو تشعر به ... وكان لهذه العاطفـة الصبيـانية اثرها العميق فى نفسه طول حياته ، ولعل فى تلك الواقعة ما يلقى ضوءا على ما جاء فى اعترافات روسو من انه فى سن العاشرة ، لم يجد لنفسه ملاذا وملجأ فى الحيـاة سوى أحلامه ، ولم يجد ما يتعزى به عن الوحدة التى أحسها سوى الارتماء فى أحضان الطبيعة حتى وجـد نفسه ـ كما قال ـ أقدر على التفـاهم مع المخلوقات الخيالية التى أحاط بها نفسه ، منه مع المخلوقات التى كان يراها فى هذا العالم ! ..

وعاد روسو الى خاله برنار ، واشتغل صبيا «محضرا»

ثم ظل ثلاث سنوات يتعلم الرسم والحفر ، ولكنه فر من هذه المهنة ضيقا بها وتمردا عليها وراح يستجدى من بلد الى بلد حتى بلغ مدينة صغيرة تدعى كونفينيون على مقربة من جنيف ، وهناك التقى بقسيس كاثوليكى اغراه باعتناق المذهب الكاثوليكي ، وأرسله الى سيدة حديثة عهد بالكاثوليكية تدعى « مدام فاران » وأوصاها بأن تؤدبه وتتولى اتمام تعليمه الدينى ، وفى دار هذه السيدة أقام روسو وعمل تارة سكرتيرا لها ،

وأخرى أنيسا وجليسا ، وكان يومئذ فى السادسة عشرة من عمره ، أبيض البشرة ، براق العينين ، أسود الشعر ، حسن القوام والهندام ، شديد الاعتداد بنفسه ... وكانت هى فى الثامنة والعشرين من العمر ، شقراء الشعر ، كريمة النفس ، موفورة الثراء ، فنشأت بينهما علاقة من الحب ظلت تنقطع وتتصل بقدر ما يبتعد عنها أو يعود اليها ، اذ كانت تؤمن فيما يبدو بالمثل القائل : « بعيد عن العين بعيد عن القلب » . وما زال روسو ينصرف عنها ثم يقطع مئات الاميال سيرا على قدميه ليعود اليها ، حتى عاد فوجد غيره قد احتل مكانه عندها ...

وكان ذلك عام ١٧٤٠ ، أى عندما بلغ روسو عامه الثامن والعشرين . وكأنما كانت العبقرية على موعد للظهور والانطلاق يوم تختفى مدام فاران من حياة روسو ، فما هو الا أن عاد الى باريس غير عابىء بما حدث ، حتى تعرف الى الاديب العلامة المشهور « ديدرو » أحد مؤلفى دائرة المعارف الفرنسية ، كما تعرف الى أسرة أخرى من أصدقاء « ديدرو » هى أسرة « ديبان » وهذه ألحقته سكرتيرا خاصا للسفير الفرنسى فى البندقية ، فبقى نحو ثلاث سنوات عاد

بعدها الى العاصمة الفرنسية ، فأخرجت له مسرحية غنائية « أوبرا » وضعها وسماها « ربات الفن الكريمات » وأخذ يكتب مقالات عهد بها اليه « ديدرو » .

وفى سنة ١٣٤٥ التقى روسو بخادمة شابة فى أحد الفنادق تدعى « تيريز ليفاسير » وصفها فى «اعترافاته» بأنها « قبيحة جاهلة ، غبية ، وأم بغيضة » .. ومع ذلك فان روسو عاشرها خمسة وعشرين عاما قبـــل أن يتزوجها ... وفى خلال هذه الفترة حملت وولدت له خمسة أطفال كان يأخذ كل طفل منهم فيتركه على عتبة مستشفى اللقطاء ، لمعاذير ومبررات حاول أن ينتحلها ويفسر بها مسلـكه ، ولـكنها كانت كلهـا أقبـح من الذنب الذى جناه ! ..

وفى صيف سنة ١٧٤٩ وقع لروسو حادث أشـبه ما يكون بما وقع لبوذا حـين نزلت عليه المعرفة تحت الشجرة المقدسة ، وكان « روسو » يذكر هذا الحادث دون أن يضطرب أو يرتعد ...

ذلك انه كان فى طريقه ذات يوم لزيارة « ديدرو » فى سجنه ، وكان « ديدرو » قد حكم عليه بالسجن فى «فانسن» لجريمة صحفية ارتكبها ، وكان الحر قائظا ، وكان فى الطريق الطويل شجرة يحتمى بها السائرون من هجير الصيف ، وبينما كان روسو يسير فى هذا الحر القائظ اخذ يسرى عن نفسه بتصفح احـدى المجلات الادبيـة ، فوقع بصره فجأة على اعـلان من أكاديمية « ديجون » ، بمنح جائزة لاحسن بحث فى الموضـوع التالى :

« هل أدى تقدم العلم والفن الى انحطاط الاخلاق أم الى الرقى بها ؟ »

ويقول روسو انه احس فجأة كانما « نفذ فى اعماقه

ألف شعاع من الضوء ، وهاجمته حشود من الافكار الحية الغامضة » فألقى بنفسه تحت شجرة على مقربة من الطريق حيث أمضى نصف ساعة وهو تائه فى هذيان فكرى خرج منه وقد بللت الدموع صدر سترته ، وفى هذه اللحظة عاش فى عالم آخـــر ، وأصبح رجـــلا آخر ! »

ولم يكن السر فى ذلك مجرد الاجـابة التى تواردت على خاطره ردا على مسابقة الاكاديمية ، بل السر فيما جرت اليه تلك الخواطر وكأنما تفتحت الابواب الموصدة فى ذهنه ، واندفع منها سيل من « الحقائق العظمى » اقام على أساسها جميع مؤلفاته الخالدة .

وقد نال روســو جائزة أكاديمية ديجون فى العـام التالى ـ سنة ١٧٥٠ ـ بعد أن كتب بحثا قيما رفع فيه لواء الفضيلة والبطولة والشـجاعة ، وصـعد به اولى درجات الشهرة والنجاح ، ومن سخريات القدر أن الاطباء فى ذلك العام بالذات قدروا الا يمتد به العمر أكثر من ستة اشهر بسبب مرض خطير فى المســالك البولية !.. وقد عاش بعد ذلك ثمانية وعشرين عاما ، ولم يمت بهـذا الداء ، بل مات بانفجار فى المخ فى ٢ يولية ســنة ١٧٧٨ ، قبـل أن تنـدلع شرارة الثورة الفرنسية بعشر سنوات أو تزيد ، ولـكن يبدو أن نذير الاطباء ألقى فى نفس روسو روح الاستهتار بكل شيء فى الحياة التى لم يبق له فيها سوى أمد قصير ، اذا هو صدق النذير ، ولم يكن هنالك ما يدعوه لعدم تصديقه فراح يكتب بأسلوب طافح بالمرارة والحرارة ، غير عابىء بالرضى والسخط من هذا الجانب أو ذلك ، ومضى يحمل حملة هائلة على النظام الاجتماعى القائم ولايرى فيه شيئا سوى الظلم والبؤس والشقاء ، وجرد قلمه

من أساليب التحرز والتأنق ليجعل منه سيفا مجـــردا بتارا كآرائه ونقداته ، وانقلب فى غير تدرج هداما ، هجاما ساخراً يضرب بمعاوله فى مجتمع فاســد ونظام قائم على أسس منهــارة من الانحلال والاســتبداد ، والفساد الذى ليس بعده فساد .

ولم يلبث روســو فى العام التالى على نجاح مقــاله الاول أن كتب مسرحية غنائية قصيرة أكسبته مزيدا من الشهرة والنجاح فعرض عليه أن يتقاضى معاشــــا ثابتا وأن يمنح وظيفة بالقصر تهيىء له الراحة من متاعبه المالية المرهقة ، ولكنه أبى ذلك رعاية لمبادئه الثائرة على حياة القصور وما فيها من مباذل ومهازل .

وأعقب ذلك بكتابة موضوع آخر سنة ١٧٥٣ بعنوان « بحث فى مصــدر عدم المساواة بين البشر » ، وفى هذا البحث خطا خطوة جريئة بارجاع أسـباب البــلاء والشقاء الى فكرة التملك داعيا الى تدخل الدولة لمحو الظلم وعدم المساواة ، مؤكدا ان سر انهيار الدول هو تحكم القلة الموسرة واغتصابها الحكم على نحو ينتهى بتحويل الجنس البشرى الى طبقة من العبيد .

وفى سنة ١٧٥٤ عاد روسو الى مسقط رأسه جنيف حيث أعلن ارتداده عن الـكاثوليكية ، ولمـا عاد إلى باريس تلقى دعوة من احدى السيدات للاقامة فى كـــوخ صغير بغابة موفمورس أهدته إليه هذه السـيدة وتدعى « مدام ابيناى » ، وأقام بالفعل فى هذا الـكوخ الذى أطلق عليه اسم « ارميتاج » فى ٩ ابريل سنة ١٧٥٦ ، ويقول روسو : « انه فى هذا اليوم فقط بدأت أحس بالحياة ! »

وفى هــذا الـكوخ الذى اتخذه روسو ملاذا وملجأ يبتعد فيه عن باريس وعن الجمهور وعن عالم البشر كله

ليرتمى فى احضان الطبيعة ، فى هذا الكوخ كتب روسو روايته الخالدة « جولى أوايلويز الجديدة » التى نالت أعظم قدر من الرواج بمجرد ظهورها ، وكانت تدور حول حقوق الفقراء وواجبات الاغنياء ، ولكنه قبل أن يتم الرواية كان قد تشاجر مع مدام ابيتاى وذهب الى قرية « مونلويه » على مقربة من المكان نفسه ، حيث أقام ضيفا على دوق ودوقة لكسمبرج ، وهنا كتب روسو معظم مؤلفاته الرائعة ومنها « العقد الاجتماعى » و « اميل » .

أما « العقد الاجتماعى » الذى نشر سنة ١٧٦٢ ، وطبع فى امستردام خوفا من عواقب طبعه فى باريس ، فقد كان يهدف الى « اقامة جميع الحكومات على أساس موافقة مباشرة أو ضمنية ، من المحكومين » كما قال روسو ، وفى هذا البحث ذهب روسو الى افتراض ان المجتمع يقوم على أساس عقد اجتماعى يسلم كل فرد بمقتضاه ارادته الخاصة لارادة الجميع ، فى مقابل حمايته ، وعلى هذا الفرض طالب روسو بقيام نظام جمهورى ، يزاول فيه الشعب حق الانتخاب المباشر ، ويتمتع المواطن بالحرية والمساواة والاخاء ، وهى المطالب التى اتخذت بعد وفاة روسو شعارا للثورة الفرنسية .

وأما كتاب « اميل » أو « بحث فى التعليم » فقد صدر فى العام نفسه وتضمن نظريات ثورية عن تربية الاطفال المنزلية ، وعن « الدين الطبيعى » وضرورة احلاله محل المذاهب الكنائسية ، وعن النظم الغذائية والصحية كما ينبغى ان تكون ، وعن تدريب الملكات العقلية والخلقية والجسمانية على نهج جديد ...

وكان روسو يعتزم أن يجعل الكتابين آخر مؤلفاته

متوقعا أن يدرا عليه مبلغا لا يقل عن ثمانية عشر ألف فرنك، فيعيش من هذا الدخل هو وحبيبته « تريز » ويذهب ليقيم فى أحضان الريف يكتب حين تطيب له الكتابة.

ولكن روسو كان يقدر شيئا ، بينما القدر يدبر له أشياء وأشياء .

فلم تكد تمضى عشرون يوما على ظهور « اميل » فى هولندة ، وقبل أن يتسع الوقت لتوزيعه فى فرنسا ، حتى فوجىء روسو بقرار أصدره برلمان باريس فى ٩ يونية سنة ١٧٦٢ بمصادرة الكتاب واحراقه ، والقبض على مؤلفه ... وتم بالفعل جمع نسخ الكتاب وتمزيقه واحراقه بعد يومين أمام سلم وزارة العدل فى باريس .

وليس هذا فحسب ، بل لقد قيل يومئذاك ان احراق الكتاب لا يكفى ، بل يجب أن يحرق كاتبه ! ولم يسع روسو ازاء هذه النذر الخطيرة ، وتحت الحاح أصدقائه ، الا أن يلوذ بالفرار فى اليوم الاسود الذى أحرق فيه كتابه وهو يوم ١١ يونية سنة ١٧٦٢ ، ولم يكد يصل الى أرض سويسرا حتى ارتمى عليها يقبل ترابها ويهتف « لارض الحرية » .

ولا يشاء القدر فى سخريته بالكاتب الحر الثائر الا أن يفجعه حتى فى « أرض الحرية » التى لاذ بها ، وانحنى يقبل ترابها ... فما هى الا تسعة أيام مضت على احراق كتاب « اميل » فى باريس ، حتى أحرقته جنيف بدورها وتلتها برن ثم نويشاتل .

وقد وصف روسو هذه المحنة الهائلة قائلا فى اعترافاته :

« فى جميع أرجاء أوربا ، تعالت ضدى الصيحات واللعنات وثارت عاصفة من الحنق لم يسبق لها « مثيل ، فقيل اننى كافر ، وزنديق ، ومجنون ،

« ووحش ضار ، وذئب مفترس » .

ولم يكن غريبا أن تكون هـذه المرحلة بداية الخلل العصبى الذى أصاب روسو ، وظل يتفاقم على الايام حتى تطور الى جنون الاضطهاد الذى لازمه الى آخر حياته .

وقد اضطر روسو ـ على كره منه ـ الى الاحتماء بملك بروسيا فردريك الثانى ، فى نويشاتل ، وظل يستمتع بوافر حمايته عامين ونصف عام ، ولم يلبث أن نشر فى سنة ١٧٦٤ مجموعة « خطابات كتبت فى الجبل » تضمنت هجوما عنيفا على ناقديه من أهل الدين والدنيا على السـواء ، فكانت النتيجة الطبيعية أن تضافر الجميع فى الثورة عليه ، ورمى بالحجارة ، وهدد بالقتل رميا بالرصاص ، وهوجم بيتـه تحت جنح الظلام فى سبتمبر سنة ١٧٦٥ ، فاضطر الى الفرار الى جزيرة صغيرة فى بحيرة بيين ، حيث هادنه الدهر شهرا واحدا من الزمان تلقى فى نهايته أمرا من مدينة برن بالرحيل، فاضطر آخر الامر الى الفرار من سويسرا ، وطنه الذى كان يعتز به طول حياته ، فأصبح يسميه « الارض القاتلة » .

وذهب روسـو الى لنـدن بدعوة من الفيلسـوف الانجليزى المشهور هيوم فى يناير سنة ١٧٦٦ ، فاذا هواجسه تزداد ، واذا مخاوفه تتجسم واذا شـعوره بالاضطهاد يجد وقودا جديدا يلتهم عقله ونفسه وحسبه بما رأى من صعوبة التفاهم مع مضيفه ، وبما يعرف من اتصال هذا المضيف بخصـومه الالداء فى انجلترا وفرنسا على السواء ، وبما تبين له من افشائه لاسراره وهواجس نفسه الى أولئك الخصوم .

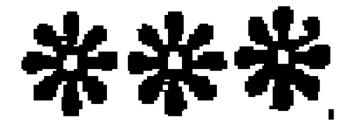
وكانت هـذه ضربة من أقسى الضربات على نفس

روسو وعقله ، ففر من انجلترا هائما على وجهه فى مايو سنة ١٧٦٧ ، وعبر البحر الى فرنسا ، حيث أخذ يتنقل من مكان الى مكان ، مطاردا ، مشردا ، معذبا بجنون الاضطهاد ، هاتفا فى ختام كل خطاب يكتبه : « اننى برىء » ثم سمح له بالعودة الى باريس فأقام فى أحد بيوتها الحقيرة ، وراح يكسب لقمته بالعمل نساخا للموسيقى ، وهنا أتم كتابه « الاعترافات » وألف كتابا آخر سجل فيه هواجس نفسه والمؤامرات التى كان يعتقد أنها تحاك حوله ، وسماه « محاورات روسو مع جان جاك » ثم بدأ يكتب آخر مؤلفاته وهو « أحلام سائر وحيد » ، وهو من أجمل آثاره الادبية رغم عوارض الجنون التى ترى بين صفحاته ، وقد مات قبل أن يفرغ من هذا الكتاب الاخير .

وكأنما تعب القدر أو أشفق من مطاردة العبقرى الحر المتشرد فأتاح له فى الشهر الاخير من حياته فرصة الراحة والتمتع بالحياة والعافية من جديد ، فساق اليه رجلا كريما من الموسرين يدعى مسيو جيراردان ، دعاه الى الانتقال من بيته الحقير ايقيم فى بقعة من أجمل البقاع فى ريف فرنسا ، على مقربة من باريس ، وقبل روسو هذه الدعوة وانتقل الى مسكنه الجميل الجديد فى أواخر شهر مايو سنة ١٧٧٨ ، حيث بدأ روسو يلتقط أنفاسه ويستعيد صحته واحساسه بالحياة ، ويشترك فى عزف بعض المقطوعات الموسيقية التى الفها ...

ولكنها كانت صحوة الموت لا أكثر ولا أقل ، ففى الثانى من شهر يولية سنة ١٧٧٨ ، وجد روسو متورم الوجه ، فاقد الحياة ، ورغم ما أشاعه خصومه من انه أقدم على الانتحار فان أيامه الاخيرة وآراءه الحاسمة ضد فكرة الانتحار ، وتقرير الاطباء الذين فحصوا

جثته ، قطعت كلها بأنه لم ينتحر ، وانما مات بانفجار داخلى فى المخ ...



هكذا كانت حياة روسو ، وهكذا كانت نهايته ...

ولـكن نهاية حياته ، لم تكن الا بداية خلوده ، ورفع لواء مبادئه وتحقيق أهدافه التحريرية النبيلة .

وحسبه مجدا وخلودا أن تنسب الى كتاباته وتعاليمه بعد مماته ، أعظم ثورة فى القرن الثامن عشر وهى الثورة الفرنسـية الـكبرى ، وأن يحج الى قبره من سـنة ١٧٨٠ فى جزيرة « بيبليبه » نصف الشعب الفرنسى، بما فيه ملـكة فرنسـا وجميع أمرائها !.. وأن تأمر الثورة الفرنسية بنقل جسمانه الى « البانثيون » مدفن العظماء ويقام له تمثال نصفى يواجه تمثال فرانكلين وواشنطن فى قاعة الجمعية التأسيسية ، وأن يتجاوز الاعتراف بفضله حدود المكان والزمان، فنرى تولستوى يحيط عنقه بسلسلة تحمل صورة روسو كأنها صورة من صور القديسين .

توم بين



كتب المؤرخ الامريكى ايلبرت هبارد يقول عن توماس بين معددا بعض مآثره الخالدة :

« ان توماس بين هو أول من اقترح استقلال أمريكا ، وأول من اشار بالاتحاد الفيدرالى للولايات ، وأول من اشار بحماية الحيوانات العجماء ، وأول من دعا لانصاف المرأة ، وأول من أبرز حقيقة الاخوة البشرية ، وأول من اقترح حقوق النشر الدولية ، وأول من دعا لتعليم أبناء الفقراء على حساب الدولة ، وأول من اقترح اعلان جمهورية كبرى تضم جميع شعوب العالم ! .. »

وكتب العالم الخالد الذكر توماس اديسون يقول :

« كان من حسن حظى أن التقى بمؤلفات توماس بين فى صباى ، اذ عثرت على مجموعة من كتابات بين فى مكتبة والدى عندما كنت فى الثالثة عشرة من عمرى ، فتفتح فى ذهنى أفق جديد حقا حين قرأت آراء هذا المفكر العظيم فى الموضوعات السياسية والدينية ، وقد علمنى بين يومئذ أشياء كثيرة لم أكن قد فكرت فيها قط من قبل » ...

وقال أديسون أيضا :

« لقد كنت على الدوام أعد بين من أعظم الامريكيين

أجمعين ، فلم يتح لنا قط فى هذه الجمهورية أن نجد احدا يفوقه فى الذكاء وسلامة الادراك » ...

ومع ذلك فان توم بين ظل زهاء قرن كامل من الزمان ضحيه حملة مدبرة خبيثة نجح صانعوها فى تلويث سمعة الرجل وتلطيخ صفحته بالاوحال حتى كان اسمه لا يذكر دون أن يثير عبارات السخط والمقت والاشمئزاز وحتى كتبت مؤلفات عن تاريخ الثورة الامريكية لم يذكر فيها اسمه بكلمة واحدة ... وحتى بلغ الامر بأحد رؤساء جمهورية أمريكا ، وهو تيودور روزفلت حين وصفه بأنه « ملحد ، قذر ، ضئيل ! »

وروزفلت هذا هو الذى زار مصر فى أوائل هذا القرن وأبدى ملاحظة نابية أكسبت الشعر العربى قصيدة شوقى الخالدة التى قال فى مطلعها :

ايها المنتحى بأسوان دارا
كالثريا تريد أن تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف
واخشع لا تحاول من آية الفن غضا

ولم يكن روزفلت فى محاولته أن يغض من فن مصر وآثارها وتاريخها اقل تجنيا على الحق من محاولته التشهير بمواطنه المجاهد الحر العظيم توماس بين ، وقد رد عليه أحد المؤرخين فيما بعد قائلا :

« ان هذه العبارة المثلثة الكلمات لا تحمل كلمة واحدة صحيحة ، فلم يكن بين قذرا ، ولم يكن ضئيلا ، ولم يكن ملحدا » .

وقبل أن نكشف عن السر فى هذا التحامل الفاضح على بطل الحرية الخالد توم بين ، نقف قليلا لنعرض فى ايجاز لحياته الحافلة بالمخاطر ...

ولد توماس بين فى ٢٩ ينـاير سـنة ١٧٣٧ بقرية ثيثفورد بولاية نورفولك فى انجلترا من أبوين يختلفـان مذهبا ويختلفان مزاجا ويختلفان سنا ، ويختلفان فى الوسط الاجتماعى ، فقد كان أبوه جوزيف بين صـانع « كورسيهات » للسيدات ، ينتمى الى طائفة الكويكرز الدينية ، وكان متدينا ، هادئا رزينا ، أما أمه فكانت ابنة محام ثرى ، تنتمى الى الـكنيسة الانجليزية التى كانت تضطهد الكويكرز وتنكر مذهبهم ، وكانت سيدة سليطة اللسان ، حادة الطبع ، غريبة الاطوار ، ولأمر ما شاءت المقادير أن تربطهما بروابط الزواج فى ٢٠ يونية سنة ١٧٣٤ ، وكان هو يومئذ فى السادسة والعشرين من العمر ، بينما كانت هى عانسا فى السابعة والثلاثين.

من هـذين الابوين ولـد توماس بين فى تلك القرية الانجليزية سنة ١٧٣٧ ، كما ولدت أخت له فى العام التالى ـ أى سنة ١٧٣٨ ـ ولـكنها لم تلبث أن توفيت فى طفولتها الباكرة ، فنشأ توم وحيـدا فى بيت تخيم عليه سحابة ثقيلة من الـكآبة والجمود ، وتلقى مبادىء العلم نحو ست سنوات أو سبع فى مدرسة القرية دون أن تبدو عليه فى مرحلة دراسته مخايل النبوغ والنجابة وقد رفض أن يتعلم اللاتينية ، اذ كان استعداده لتعلم اللغات ضئيلا جدا ، حتى لقد عاش فى فرنسا فيما بعد عشر سـنوات واشترك فى الثورة الفرنسـية واجتمع بألوف الفرنسيين ومع ذلك لم يعرف من اللغة الفرنسية قدرا يكفيه للخطابة أو الـكتابة بها ...

وكان بين يقول : ان لديه ميلا طبيعيا للعلوم ، وكان يؤثر عنه التفوق فى الحسـاب والعمليـات الرياضـية المعقدة وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره أخرجه أبوه من المدرسة ليعلمه صناعة الـكورسيهات الدقيقة التى

كانت تحتاج الى تعليم طويل وتمـرين دقيق ودراية تامة بأصناف الحرير والـكتان والمطاط .

ولـكن بين لم يفلح فى هـذه المهمة التى كانت تنفر منها طبيعته ، وكان يرى ان النســاء أخلق بهـا من الرجال ، ومع ذلك فقد اضطر الى العودة الى الاشتغال بها مرة بعد آخرى كلما كانت سـبل العيش تضيق فى وجهه خلال السنوات الاولى من حياته ، وهى السنوات التى بدأت عند هربه من بيت والده فى التاسعة عشرة من عمره ، وقد فر يومئـذ ليلتحق باحـدى السفن الشراعية ، ثم ترك الخدمة فىالسفينة وعاد الىالاشتغال بصناعة « الـكورسيهات » ثم غادر لندن سنة ١٧٥٨ الى دوفر حيث عمل فى المهنة نفسها ، وفى سنة ١٧٥٩ اقترض بعض المـال وافتتح لنفســه محلا لصـناعة « الكورسيهات » فى سندويتش كنت ، وفى سبتمبر من ذلك العام تزوج بخادمة يتيمة تدعى مارى لامبرث ، ولم ينقض عام على زواجهما حتى توفيت ، وبوفاتها ترك بين مهنته واشـتغل موظفـا بالضرائب بمرتب قدره خمسون جنيها فى العام ، ولـكنه فصل سنة ١٧٦٥ ، لعدم دقته فى مراجعة البضائع فعاد الى المهنة البغيضة مضطرا ، ولـكنها كانت عودة قصيرة ، اذ لم يلبث أن ذهب الى لنـدن واشـتغل بتـدريس مبـادىء اللغـة الانجليزية باحدى المدارس الخاصة فى مقابل خمســة وعشرين جنيها فى السنة وكان يتطلع فى الوقت نفسه للعودة الى وظيفته بالضرائب ،. وقدم لذلك تظلما من قرار فصله فقبل تظلمه وأتيح له أن يعود بالفعل فى ١٥ فبراير سنة ١٧٦٨بمركز جمركى يقع بالقرب منالمصيف الذى يسمى الآن برايتون ، وهنـاك بدأ بين يبرز فى المناظرات والمناقشات السياسية وغيرها مما كان يحتدم

حـولـه الجدل فى بعض النـوادى الخاصـة وكان أكثر مطالعاته فى العلوم والتاريخ والفلسفة والاقتصاديات ، كما كان يجمع الى جانب ذلك سرعة فى الخاطر ، وقوة فى الحجة وحضورا فى البديهة أكسبته مكان الصدارة فى تلك المناقشات ، وقد كانت هذه الفترة وتبلغ نحو ست سنوات هى فترة التكوين التى بدلت « بين » من فتى متردد خجول الى رجل مقدام جرىء ...

وفى سنة ١٧٧٢ ، ذهب بين الى لنـدن حيث قدم عريضـة باسم موظفى ضرائب الانتـاج فى انجلترا الى مجلس العموم واللوردات يطلبون فيها انصافهم وزيادة أجورهم ، وقد أنابوا عنهم توماس بين ، وجعلوه ناطقا باسمهم ومحاميا عنهم . ولـكن أعضاء البرلمان رفضوا الاستجابة الى العريضة وأعلنت اللجنـة المختصـة ان الموظف الذى لا تعجبه وظيفته يستطيـع أن يستقيـل ليحل محله آخرون من طالبى التوظف ...

وفى خلال اقامة بين فى لندن استطاع أن يلتقى ببعض الشخصيات البارزة وفى مقدمتها بنيامين فرنكلين الذى ألقى عليه أسئلة دقيقة عن المسائل العلمية أجاب عنها بين اجابة مرضية ، جعلته موضع التقدير والعطف من الفيلسوف الامريكى الـكبير الذى جعله يولى وجهه فيما بعد شطر العالم الجديد ــ وكان « بين » قد تزوج ابنة أحد تجار التبغ بعد أن توفى عنها أبوها وترك لها ولأمها دكانه ، وقد ساءت حال الدكان أثناء غياب « بين » فى لندن وتراكمت الديون عليه ، فانتهزت ادارة الضرائب فرصة انقطاعه عن العمـل أسبوعين وأصـدرت قرارا بفصله للمرة الثانية ، واضطر « بين » لانقاذ نفسه من السجن الى التنازل عن جميع ما يملك ليبـاع بالمزاد العلنى تسوية للديون وأسكاتا للدائنين ، وجاءت الطامة

الـكبرى بعد شهرين بانفصال زوجته عنه لسبب أبى ان يذكره أو يتحدث عنه طول حياته وقد تبين انه لم يعاشرها معاشرة الازواج طيلة مدة زواجهما ، أى نحـو ثلاثين شهرا ! ..

وفى يونية سنة ١٧٧٤ ، ذهب «بين» الى لندن وأقام فيها ثلاثة أشهر بلا عمـــل ولا مورد رزق ، وقد تردد على بنيامين فرنكلين عدة مرات ويبدو أن بنيامين ادرك ان « بين » لن تقوم له قائمة فى انجلترا بعد فصـــله وافلاس تجارته وفقد زوجته ، فنصحه بالهجرة الى امريكا ليبدأ صفحة جديدة من حياته ، وزوده بخطاب الى زوج ابنته للعناية به والحاقه بعمل يعيش منه ، فاستقل سفينة ابحرت الى فيلادلفيا فى الاسبوع الاخير من شهر سبتمبر سنة ١٧٧٤ وقطعت المسافة فى تسعة أسابيع .

وكان لخطاب فرنكلين فعل السحر فى نفوس الذين علموا به من الامريكيين ، فقد كان الدكتور بنيـــامين فرنكلين يومئذ يحتل أرفع مكان فى نفوس مواطنيـــه ، وكان الامريكى الوحيد الذى تجاوزت شـــهرته المحيط وتردد اسمه فى كل بلد من أوربا ، فـــلا غرو اذا كان « بين » قد اســـتقبل بالترحاب من اللحظة التى هبط فيها أرض الدنيا الجديدة ، فلم يكد ينهض من فراش المرض الذى أصابه على ظهر السفينة حتى عين محـررا لمجلة « بنسلفانيا » وهى صغيرة ظهر أول أعدادها فى يناير سنة ١٧٧٥ ، وقد ظل « بين » يحررها بنجـــاح ملحوظ زهاء ستة اشهر ، ثم تخلى عنها ليكرس كل وقته للمساهمة فى الثورة على الاحتلال البريطانى ...

« وفى خلال الاشهر الستة المذكورة شن توماس بين اول حملة لاحترام المرأة ومعاملتها بالانسانية والرفق ،

ووضع اول حجر فى حركة تحريرها ، وفى هذه الفترة نشر أول دعوة « للثورة العالمية » ولـكنه لم يكن شيوعيا قط ، بل كان على العكس مؤمنا بالفردية ، وكان يعتقد ان الدولة « شر ضرورى » ، ولـكن الخير فى التقليل منه وكان يدعو الى ما يسميه « الانسانية » ويقيمها على دعامات ثلاث هى « الحرية ، والعقل ، والاحسان»

وفى مارس سنة ١٧٧٥ ، كتب مقالا عنوانه : « الرق فى أمريكا » دعا فيه الى الغاء الرق وتحريمه ، ولم يكد يمضى شهر على نشر المقال حتى قامت أول حركة ضـد الرق فى فيلادلفيا .

وفى ١٠ يناير سنة ١٧٧٦ ، ظهر كتيب لم ينشر اسم كاتبه ، وان لم يكن سرا عند عدد من الناس انه «توماس بين » وكان عنوان الـكتاب « حسن الادراك » ، ويضم بين دفتيه حملة شعواء ضـد الاسـتعمار البريطانى وسخافة أساليبه، مع التنديد بالشعبالامريكى واتهامه بالحماقة والغباء اذ يقبل ، وهو القوى الغنى بنفسه ، أن يتلقى الاوامر من شعب آخر عبر البحار !

وسرى الـكتاب بين الشـعب الامريكى كما تسرى النار فى الهشيم ، ولم يكسب منه «بين» ما يعادل قرشا واحدا ، لانه اتفق مع الناشر على أن يدفع هو ــ اى « دين » ــ أو أى خسارة تترتب على النشر . أما فى حالة الـكسب فللنـاشر النصف ، وللمحاربين فى صـفوف الثورة على الانجليز النصف الآخر ...

ولـكن الرواج الهائل الذى ناله الـكتاب حمل اسم توماس بين فى أمريكا على كل لسان ، كما أحدث الكتاب فى النفوس أثرا قلما كان له مثيل فى التاريخ ، وقد كتب المؤرخ الانجليزى المشهور سير جورج ترفيليان فى كتابه عن تاريخ الثورة الامريكية :

« انه من العسير ذكر اى موضوع الفه أحد البشر فأحدث اثرا يجمع بين السرعة والاتساع والاستمرار كهذا الكتاب ... وقد سطا الناشرون عليه وقلدوه ، وترجموه الى كل لغة فى كل بلد يضم أناسا يعطفون على الجمهورية الجديدة ، ان كتاب « حسن الادراك » جعل الوفا من الناس يحبذون الاستقلال بعد أن كانوا يضيقون ذرعا بمجرد التفكير فيه ، لقد أحدث ذلك الكتاب أثرا لا يقل عن المعجزة ! »

ولم يقف « بين » عند حد الدعوة الى الثورة بقلمه ، بل تطوع فى الخدمة العسكرية فى يولية سنة ١٧٧٦ ، وعمل سكرتيرا للجنرال روبردو ، الذى كان يقود فرقة تسمى « المعسكر الطائر » بالقرب من نيويورك ، ثم التحق بفرقة الجنرال جرين فى قلعة لى ، كياور متطوع ، وقد قدمه الجنرال جرين لجورج وشنطن الذى كان قائدا للجيش الامريكى وكان قد قرأ كتاب « بين » وأعجب به .

وفى خلال هذه الفترة كان « بين » يمارس واجباته الحربية نهارا ، ويعكف ليلا على كتابة سلسلة من المقالات عنوانها « الازمة » لتقوية الروح المعنوية لدى الجنود ، وكان لهذه السلسلة صداها ورواجها واثرها البعيد ، وفى المقال الثانى من هذه السلسلة كتب «بين» يخاطب قائد جيش الاحتلال البريطانى قائلا : « ان عبارة ـ الولايات المتحدة الامريكية ـ سيكون لها فى اذن العالم او فى اذن التاريخ طنين كعبارة : بريطانيا العظمى

وكانت هذه أول مرة يستخدم فيها تعبير ـ الولايات المتحدة الامريكية ـ وهو الاسم الذى أطلق على أمريكا فيما بعد ...

وقد عين « بين » فى يناير سنة ١٧٧٧ ، سكرتيرا

للجنة ألفت للتفاهم مع الهنود الحمر ، ثم انتخب سكرتيرا للجنة الشئون الخارجية التى كانت تعمل قبل ذلك باسم لجنة المراسلات السرية ؛ ولكنه أقحم نفسه فى مناقشات حول توريد الاسلحة الفرنسية الى الثوار فاضطر الى الاستقالة .

وفى نوفمبر سنة ١٧٧٩ ، عين توماس بين سكرتيرا للجمعية التشريعية فى بنسلفانيا وكان من أسعد اللحظات التى مرت به ان الجمعية فى أول أيامها تلقت مشروع قانون بالغاء الرق ، وأصبح المشروع قانونا نافذا فى أول مايو سنة ١٨٠. ، وحرر بمقتضاه ستة آلاف عبد فى الولاية ، فكان صدور هذا القانون فوزا عمليا لدعوته.

وفى ٤ يولية سنة ١٧٨٠ ، منح توماس بين درجة الماجستير الفخرية فى الآداب من جامعة بنسلفانيا .

وبينما كان « بين » يستعد لكتابة تاريخ الثورة ، بعد أن استقال لهذا الغرض من وظيفته بالجمعية التشريعية ، اذا بالقدر يعد له مهمة أخرى ، فقد قرر الكونجرس ايفاد بعثة الى فرنسا للحصول على معونة مالية وعسكرية ، وكان من أعضاء البعثة شاب من أثرياء الجنوب فى السادسة والعشرين من عمره يدعى هنرى لورنز ، فاشترط للقبول أن يسافر معه توماس بين ، لانه يعجب بكتابته ولانه يشاركه فى كراهية الانجليز الذين أسروا والده وألقوا به فى برج لندن ، فقبل أن يسافر سكرتيرا لهذا الشاب الوطنى ، وسافر بالفعل من بوستن فى ١١ فبراير سنة ١٧٨١ ، فوصلا فرنسا فى ٩ مارس ، وعاد فى ٢٥ أغسطس على سفينة حربية فرنسية ومعهما قرض لامريكا بمبلغ مليونين ونصف مليون جنيه ، عدا سفينتين أخريين مشحونتين بالبضائع للجيش الامريكى ، وكان لهذه النجدة أثرها المادى

والمعنوى الحاسم فى الجيش الامريكى ، وفى اقتراب الثورة الامريكية من نهايتها الظافرة .

وانه لمن طرائف السخريات ان توماس بين ، عند وصوله الى بوسطن بهذه النجدة الضخمة اضطر الى اقتراض دولار ليدفع أجر المركب التى اقلته عبر نهر ديلاوير ، وكان لورنز قد سبقه لابلاغ الكونجرس بنبأ الهدية الفرنسية .

وقد اشتدت الضائقة المالية على توماس بين ، داعية الثورة الاكبر فكتب خطابا يفيض بالمرارة الى وشنطن « ابو الشعب » يذكره بخدماته لبلاده ويشكو اهمال أمره ، فقرر وشنطن أن يدفع له من المصروفات السرية مبلغ ثمانمائة جنيه سنويا فى مقابل استمراره فى الدعاية للثورة بأسلوبه الذى كان يمتاز بالسلاسة والبساطة والاقناع ، ولكن هذه المعونة انقطعت باستقالة وزير المالية روبرت موريس فى يناير سنة ١٧٨٣ ، فعادت الضائقة المالية تأخذ بخناقه ، وتدهورت حالته النفسية الى أقصى الحدود ، حتى دعاه وشنطن للنزول ضيفا عليه فى مقر قيادته ، فضاعف ذلك حقد الحاقدين ، وحسد الحاسدين ، وحرك دسائس الرجعيين الذين سلطوا عليه الأقلام الاجيرة ، والالسنة البذيئة لتلفيق الاكاذيب والمفتريات عن حياته الشخصية ، وبلغ بهم الامر حد استئجار كاتبين لوضع تاريخين مشوهين لحياته ، أحدهما نشر فى انجلترا سنة ١٧٩١ ، والآخر بعد وفاته ببضعة أشهر سنة ١٨٠٩ .

على انه فى ربيع سنة ١٧٨٤ ، قررت ولاية نيويورك أن تهب « بين » مزرعة مساحتها ٢٧٧ قدانا ، ودارا أنيقة بجوار مدينة نيورشيل ، وكانت هدية كريمة جاءت على غير انتظار ، وعلى أثر ذلك كتب جورج

وشنطن خطابا الى بعض أعضاء المجلس التشريعي في فرجنيا يقترح ان تقتدى الولاية بنيويورك فتقرر هبة للرجل الفقير المدين الذى خدم الثورة الامريكية بقلمه وقلبه ولسانه ، ولكن المشروع الذى قدم لمنحه الهبة المطلوبة لم ينل الاغلبية ، ومع ذلك فان أحوال توماس بين ، كانت تسير فى طريق التحسن ، ففى ديسمبر سنة ١٨٨٤ منحته ولاية بتسلفانيا خمسمائة جنيه . وفى أكتوبر سنة ١٧٨٥ قرر الكونجرس منحه ثلاثة آلاف دولار من خزانته مكافأة له على خدماته للثورة .

وسافر « بين » الى فرنسا ومعه نموذج لجسر من الحديد اخترعه ونجح فى ذلك بالفعل ، وزار مسقط راسه بانجلترا واختلط ببعض أقطابها ، ولكنه لم يلبث ان ألف كتابا ثوريا آخر عنوانه «حقوق الانسان» ركز فيه أقسى ألوان الهجوم على النظام الملكى ، ووضع الاسس التى ينبغى أن يقوم عليها النظام الجمهورى ، فصودر الكتاب فى انجلترا وحوكم « بين » غيابيا على كتابته وحكم عليه بالاعدام ، وفى الوقت نفسه كان الكتاب قد ترجم الى الفرنسية وراحت أيدى الفرنسيين تتلقفه كما أخذت الصحف تتبارى فى اقتباس فقراته ، وفى ٢٦ اغسطس سنة ١٧٩٢ قررت الجمعية الوطنية الفرنسية منح لقب المواطن الفخرى لتوماس بين ، وتقدمت أربع مقاطعات فرنسية تطلب أن يشرفها بتمثيلها فى المؤتمر الوطنى الذى كان قد تقرر عقده فى باريس لوضع نظام جمهورى يحكم بمقتضاه الشعب ، فاختار « بين » احداها وقبل عضوية المؤتمر باسمها ، وقد استقبله الاعضاء بالتصفيق الشديد حين اتخذ مقعده لاول مرة يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ ، وفى اليوم التالى أعلن الغاء الملكية فى فرنسا ، بقرار من المؤتمر

الوطنى ، كما بدأ الاخـذ بالتقويم الثورى الجديد وهو الذى يجعل بداية العام الاول يوم ٢٢ سبتمبر سـنة ١٧٩٢ .

على ان روح الثورة المتأصلة فى نفس توماس بين، لم تذهب به الى حدالموافقة على اعدام لويس السادس‌عشر وقد دافع طويلا أمام المؤتمر عن فكرة نفيه الى بلد ناء مدى الحياة ، لان الاعدام فى نظره لم يكن يخدم قضية الحرية الانسـانية فى شىء ، بل هو مظهر من مظـاهر الوحشية ، وكان من رأيه أن يرسل الملك المعزول لويس السادس عشر الىأمريكا ، وقد تولى الكونت‌كوندورسيه ترجمة خطاب « بين » الى الفرنسـية ، وأعطـاه بين الى سكرتير المؤتمر ليتلوه باسمه فى جلسة ٢١ نوفمبر.

وعاد مرة أخرى فى جلسة ٢٩ يناير ، فألقى دفاعا حارا ضد اعدام لويس السادس عشر قال فيه :

« . . . لئن قدر لى ، بعد العودة الى أمريكا ، أن أشتغل بوضع تاريخ للثورة الفرنسية ، فانى أفضل أن أسجل ألف خطـأ للثورة أملته روح الانسانية على أن أسجل خطـأ واحدا أملته القسوة فى طلب العدالة !»

وفى نهاية المناقشات أخذ الرأى فكان ٣٨٧ فى صف الاعدام و ٣٣٤ ضد الاعدام .

وقد أدى تطور الحوادث واشـتداد الصراع بين اليعقوبيين « أصـحاب الجبـل » وبين الجيروندين « أصحاب السهل» الذين كان ينتمى اليهم توماس بين، الى القاء القبض عليه والزج به فى السجن ، بينما أعدم كثيرون من زملائه والقى فى السـجن بالآخرين ، ولولا انه احتمى بجنسيته الامريكية لـكان مصيره الى المقصلة مع الاولين ، وقد ظل « بين » فى السجن عشرة أشـهر وتسعة أيام ، ثم أفرج عنه تحت ضغط ممثل امريكا فى

باريس ، وكان الضعف قد أخذ منه مأخذه ، فنقله وزير أمريكا الى داره ، وتولى علاجه من آثار سوء المعاملة وضعف التغذية .

ولم يكد « بين » يخرج من سجنه حتى امتلأت نفسه بالمرارة ضد معبوده السابق « أب الشعب الامريكى » جورج وشنطن، لعدم تدخله الشخصى لاطلاق سراحه ، وقد نشر فيما بعد كتيبا بعنوان «خطاب الى وشنطن» حشاه بألوان التقريع والتجنى على وشنطن ، ولكنه لم ينل من الرئيس الامريكى الاول شيئا بهذا الخطاب ؛ بل أعطى خصومه سلاحا جديدا راحوا يمزقون به سمعته واخلاصه تحت ستار الغضب لأبى الشعب والنقمة على شاتمه .

ولقد لبث « بين » فى فرنسا حينا يترقب فرصة العودة الى أمريكا وسافر فعلا الى الهافر فى سنة ١٧٩٧ ليصحب صديقه الوزير الامريكى منرو الذى كان قد دعاه للعودة الى بلاده ، ولكن « بين » عاد الى باريس حين علم ان الاسطول البريطانى يعترض السفن المحايدة ويفتشها ، وقد خشى أن يقبض عليه ويؤخذ الى انجلترا حيث يواجه حكم الاعدام الصادر عليه .

وأقام « بين » خمس سنوات بعد ذلك مع صديقه نقولا بون فرى وزوجته ، وكان يدفع لهما أجر اقامته ، وفى هذا المسكن المتواضع زاره يوما نابليون بونابرت فى ربيع سنة ١٨٩٧ ، وقال له : انه تأثر أشد التأثر بكتابه « حقوق الانسان ! » .. ونام ليالى طويلة وهو يضع الكتاب تحت رأسه ، ثم قال : « ان الواجب أن يقام لك تمثال من الذهب فى كل مدينة من مدن العالم »

وقد تبين «بين» فى خلال مقابلته لبونابرت ان زيارته لم تكن بريئة، اذ أخبره انه يعتزم غزو انجلترا لتحريرها

من الطغيان الملكى وانه يود أن يحصل من «بين» على معلومات عن انجلترا تساعده فى خطتــه ، وقد أخـذ « بين » يصف بونابرت بعد ذلك «بالدجال الفرنسى»

وأخيرا عاد « بين » الى أمريكا ، بعد خمسة عشر عاما ، فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٠٢ ، فوجد الحال غير الحال ، والاهداف غير الاهداف ، والناس غير الناس ، وقد نصحه توماس جفرسون رئيس الجمهورية اذ ذاك أن ينسى ما وجه اليه من اساءات وما نسب اليه من مفتريات ، فقبل أول الامر ، ثم انقلب الى الهجوم فى سلسلة مقالات بعنوان : « خطابات الى مواطنى الولايات المتحدة » ..

وقد ظل « بين» طوال السنوات الخمس أو الست الاخيرة من حياته هدفا لالوان شتى من الشتائم واللعنات التى اثار معظمها كتابه « عصر العقل » وهو كتاب تناول فيه العقائد والاديان بأسـلوب يتنـافى مع المعتقـدات المسيحية بوجه خاص .

وفى ٢٥ فبراير سنة ١٨٠٩ ، أصيب بحمى جاءت فى أعقاب فترة من الضعف والهزال ، وكانت تتخللها نوبات من التشنج العصبى ، وقد ظل يلفظ الخفقات الباقية من سراج حياته فى بطء وعناء حتى لفظ آخر أنفاسه فى ٨ يونية سنة ١٨٠٩ ، ولما مات لم يشيع جنـازته سوى ستة أشـخاص ، أحـدهم سـاعاتى من طـائفة الـكويكرز ، ومدام بونفلد الفرنسية وولدها ، وزنجيان جاءا لحمل النعش ووضعه فى المقبرة ..

وهكذا طويت صفحة هـذا الانجليزى الذى ثار على الاستعمار البريطانى .. فحكمت بريطانيـا باعدامه ، وخاض غمار الثورة الامريكية بروحه وقلمه فجنى الشوك والحنظل والجحود ، وانضم الى الثورة الفرنسية ضـد

طغيان الملـكية الفاسدة المستهترة فكادت الثورة تأكله كالقطـة المسعورة حين ولغت فى الدماء ، وراح قادتها يتقاذفون التهم ليفتك بعضهم ببعض تحت ستار الوطنية والحرية والعدالة !!


جان دارك
العذراء التي حررت فرنسا
من الاستعمار البريطاني

ان قصة جان دارك ، فتاة أورليان التى قادت جيوش فرنسا فى ثورة عارمة ضد الاحتلال البريطانى ، هى قصة تكلل بالغار جبين فرنسا الغابرة ، وتدمغ بالعار وجه فرنسا المستعمرة الغادرة ! ..

فما أبعد الفارق بين فرنسا الامس المحتلة المهيضة الجناح ، الناقمة الحاقدة على الاستعمار ، المشوقة الى الحرية والاستقلال ... وبين فرنسا اليوم ، المتنكرة للحرية والاحرار ، السائرة فى ركب الاستعمار ضد المجاهدين الابرار ...

ان فرنسا التى هتفت بالامس لجان دارك بطلة الحرية والكفاح ، تختلف أشد الاختلاف عن فرنسا التى هتفت منذ بضع سنوات لجنيفييف ، ممرضة قلعة « ديان بيان فو .. »

وما أبعد البون بين الفتاتين ... فالاولى مجاهدة فتية فى سبيل الحرية ، والاخرى مغامرة صمدت فى تمريض القوات الفرنسية التى نصبت نفسها حامية للاستعمار ضد طلاب الاستقلال والحرية !

وقد يكون الشبه الوحيد بين الفتاتين هو اشتراكهما فى التشبه بالرجال فى ميدان القتال ، اذ ارتدت جنيفييف ملابس الجنود ــ رغم حرصها على وضع أحمر الشفاه !

ـ وكذلك كانت جـان دارك ترتدى زى الرجـال ، فى الميدان وخارج الميدان ...

ولقد كان لمسألة الزى هذه أثر عظيم فى تاريخ « جان دارك »وفى توجيه الدسائس التى انتهت باعدامها ، وما زال المؤرخون يختلفون أشد الاختلاف فى تعليل استمساك جان دارك بهذا الزى ، حتى فى المناسبـات التى كان ينبغى أن تتغلب فيهـا الطبيعة النسوية ، فتوحى الى فتاة ناضرة الشباب، أن تطرح زى الرجال لتزدان بأثواب النساء .

عرض برنارد شو لهذه النقطة بالتحليـل فى المقدمة المستفيضة التى قدم بها روايته المشهورة عن جان دارك فتساءل :

« . . . لماذا لم تذهب فتاة كهذه تحمل رسالة
« خاصة من السماء الى ولى العهـد (فهكذا كانت
« تنظر جان دارك الى المشروع الذى وضعته بمهارة
« فائقة لتخليص ذلك الملك غير المتوج من ورطتـه
« الشنعاء) ... لماذا لم تذهب فتـاة كهذه بكل
« بساطة الى البلاط فى ثياب النساء ، لاقناع ولى
« العهد على طريقة النساء بقبول مشورتها ، كما
« جاءت قبلها نساء أخريات يحملن مثل هذه الرسالة
« الى والده المجنون وجده العاقل ؟ . . ! لماذا كانت
« تصر على أن يكون لها ملابس الجندى ، وأن يكون
« لها ما له من سلاح وسيف وجواد وعدة ؟ ولمـاذا
« كانت تصر على معاملة جندها معاملة الرفاق ؟ . .
« فتنام معهم على الارض جنبا الى جنب حين يجن
« الليل ؟ ! »

وفى أثناء محاكمة جان دارك الاولى سألها بوبير عضو المحكمة « ان صح أن يطلق على مثل تلك الهيئة المأجورة

هذا اللفظ » :

ـ أى ثوب كنت ترتدين ؟ ..

فأجابت :

ـ كنت أرتدى ثوبا من ثياب الرجال وأتمنطق بسيف أخذته من دى بودريكور ، ولم يكن معى سلاح غيره .

ولكن المحكمة لم تكن معنية بأمر السلاح الذى كانت تحمله جان دارك ، بل كان همها الاكبر مسالة الزى الذى خرجت به على المألوف وتشبهت بالرجال ، فعاد بوبير يسألها :

ـ ومن الذى نصح لك بأن ترتدى ثوب الرجال ؟..

ولما فطنت جان دارك الى ان المقصود استدراجها الى اجابة معينة هى ان « أصوات » جان المقدسة هى التى نصحت لها بذلك ، ومن هنا تستطيع المحكمة التنديد بتلك الاصوات التى توحى بما يخالف تقاليد الكنيسة وتعاليمها ـ لما فطنت جان دارك الى ذلك ، رفضت باصرار أن تجيب عن السؤال رغم تكراره ، طالبة الى القاضى أن ينتقل الى موضوع آخر ؛ ولكنه لا يكاد ـ ينتقل الى موضوع آخر ـ حتى يعود الى مسألة الزى فيسألها :

ـ هل « الصوت » هو الذى نصحك بهذا الزى ؟..

فتفادت الجواب الصريح قائلة فى لباقة نادرة :

ـ أعتقد ان « الصوت » كان يزودنى دائما بنصائح طيبة ! ..

ولما صدر الحكم بالسجن المؤبد على جان دارك ذهب وراءها كوشون ، رئيس المحكمة الخائن ، ولفتها الى ان من بين الشروط التى أخذت عليها ووقعتها ، نصا تتعهد فيه بألا تعود الى ارتداء زى الرجال ، فاذا فعلت كانت كافرة تستحق أن تموت حرقا ! .. وبهذا وضعت

الخطة التمهيدية ، كما يعتقـد بعض المؤرخين ، غير الانجليز ، لاستبدال حكم الاعدام بحكم السجن المؤبد ، فقد عادت جان دارك الى ارتداء زى الرجال ، اما عن اصرار على العنـاد ، واما نتيجة دسـيسة مدبرة .. كما يقول بعض المؤرخين ، وفحوى هذه الدسيسة ان جان دارك نفقدت ملابسها النسوية ذات يوم فى السجن فلم تجدها ، وانما وجدت على مقربة منها بعض ملابس الرجال فاضـطرت الى ارتدائها ، ولـكن الذى يلفت النظر هو ان جان نفسها حين حضر كوشون الى السجن على الاثر لاستجوابها لم تذكر له شيئا عن هـــذه الدسيسة ، مع انها لو فعلت لما اثر ذلك فى كرامتها أو قدسية رسالتها ، ويزيد الامر غرابة ان أحد القضـاة قد صرح فعلا بارتيابه فى ان تكون جان دارك قد عادت الى ارتداء ملابسها طائعة مختارة دون أن يشعر بذلك رجال الحرس ، ومع ذلك نرى موقف هـذا القـاضى لا يشجعها على انتهاز الفرصة للـكشف عن الدسيسة والدساسين ، وتعزيز نظرية القاضى بالادلة والبراهين ! فقد سأل جان دارك :

ــ لماذا عدت الى ارتداء هذا الزى ؟ !

فأجابت اجابة صريحة لا محل معها للتأويل والتجريح اذ قالت :

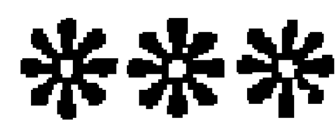
ــ عدت اليه مدفوعة برغبتى ! ..

فقيل لها انها تعهدت وأقسمت ألا تعود الى ارتداء هذا الزى ، فأجابت فى شجاعة وجرأة وجدل منطقى سديد :

ــ لم أكن أنوى قط ، ولا عنيت قط ألا أعود اليه ، واذا لم أكن قد أوفيت بالعهد فان أحدا منكم لم يبر بوعده معى ، فقد قطعتم لى عهودا كثيرة أذكر منها أن

تفك عنى هــذه الاغلال ، ولــكنها لا تزال ترهقنى الى اليوم ! ! ..

فلمــا سئلت مزيدا من التفسير والايضـــاح ازدادت جرأة وصراحة وصلابة ، فقالت : انها عادت الى زى الرجال لانها وجدت نفســـها بين الرجال ، فآثرت أن تكون مثلهم • وترى الموت خيرا لها من أن تعــود الى زى النساء ، الا اذا سمح لها بتأدية الصلاة ونقلت الى سجن مناسب يتولى النساء فيه مهمة الحراسة •



وهذه الحجة التى ذكرتها جان دارك ، حجة الوجود بين الرجال ، تبريرا لارتدائها أزياءهم تعززها فتــوى سابقة ، لعلها هى التى أوحت الى جان دارك بهــذه الاجابة ، وهى فتوى اثنين من العلماء ، قبيل اقتناع الملك بتعيينها قائدا عاما للجيوش الفرنسية ، وكان احد هذين العالمين عميدا لجامعة باريس ، تلك الفتوى التى أعلنا فيها انه لا تثريب على جان دارك فى أن ترتدى زى الرجال ما دامت تقوم بأعمال الرجال ! ..

وطبيعى الا يقتنع كوشون وأعوانه بهذه الاجــابة ، وأن يبادر الى استدعاء هيئة المحكمة لاصــدار الحكم باعدام جان دارك ، وسواء أكان فى الامر دسيسة أم لا فان هذا لا يغير شيئا من جوهر الموضــوع ، وهو ان مسألة شخصية كهذه قد اتخذت تكأة للانتقام السياسى من هذه الشهيدة المخلصة ، ولو لم تكن جان دارك قد عادت الى ارتداء زى الرجال لما عدم كوشون وسادته الانجليز ألف وسيلة أخرى للوصول الى ما يرومون .

ان جان دارك عند الفرنسيين رمز الوطنية الصادقة والتضحية الغالية فى سبيل الوطن ، والوطنية فى ذاتها صفة جديرة بالاعجاب والتمجيد ، ولــكن جان دارك

تمثل عندنا ناحية أخرى أجل وأعظم من الوطنية ، وهى الايمان ! ..

الايمان الصادق الراسخ الذى ينبعث من القلب !

الايمان القوى الجبار الذى يزعزع راسخات الجبال!

الايمان الرائع العتيد الذى يجل عن المطامع والمغانم ، ويسمو على الصعاب والعقبات ، ويرتفع بصاحبه الى مقام لا يرى فيه الا النور واليقين ، والارادة التى لا تعبأ بالعوائق ولا تخضع لما يخضع له سائر البشر من قيود وأثقال ! ..

ولدت جان دارك فى قرية دومريمى عند ملتقى مقاطعة تشبين بمقاطعة اللورين بفرنسا فى ٦ يناير سنة ١٤١٢ ، فى بيت متوسط الحال ، وكانت أمها سيدة تدعى ايزابيل موسومة بالصلاح والتقوى ، شديدة المواظبة على أداء الفرائض الدينية فى الكنيسة ، ولم تكن الكنيسة بعيدة عن البيت ، بل لم يكن يفصل بينهما سوى حديقة صغيرة ، فتهيأت لجان بذلك بعض أسباب الايمان الدينى بحكم التردد المنتظم على الكنيسة وبعامل القدوة الحسنة ممثلة فى الام التقية الصالحة ، وقد غلبت طبيعة التدين على الفتاة حتى تفردت دون صاحباتها بقلة النزوع الى اللهو وشدة التمسك بشعائر الدين وقضاء الشطر الاكبر من وقتها فى أداء فرائضه !

وكان والد جان رجلا صاحب حقول واسعة يستغل جانبا منها فى تربية الغنم ، وكان يرعى غنمه بنفسه أحيانا ويعهد بذلك الى أبنائه وبناته أحيانا أخرى ، شأنه فى ذلك شأن أنداده من الريفيين الذين لا يصرفهم لهو المدن ولا ترف الثراء المتوسط عن واجب العمل ، يتولونه بأيديهم ويدفعون اليه أولادهم ، وهكذا قدر لجان دارك أن تتولى فى طفولتها الاولى عملا قلما نجد

بين الانبياء والرسل من لم يشتغل به قبل الرسالة ، وهو رعاية الغنم ، وليس بعسير على الانسان أن يعلل السر فى هذا الارتباط بين النبوة والرسالة وبين تلك المهنة ، ومرجع السر فيما نعتقد هو هذه الوحدة التى

تتيح للانسان أن يخلو الى نفسه ، بعيدا عن لغط الناس وتناحرهم على البقاء ، وفى ظل هذه الخلوة الهادئة يتخلى اللسان عن وظيفته ، فيهيىء الجو الصالح لمناجاة الضمائر ، وتطهير القلوب والسرائر . والسرائر الطاهرة والقلوب العامرة كانت دائما وراء الخير الشامل والاصلاح القائم على أوطد الدعائم .

على أن جان دارك قد وجدت لمناجاتها مادة غير الاصلاح الدينى أو الخلقى ، اذ اتجهت بحكم البيئة العامة التى نشأت فيها وجهة أخرى من وجهات الاصلاح والتقويم ، ونعنى بها وجهة الجهاد الوطنى الذى لم يعرف العالم سلاحا لمن يخوضون غماره أقوى من سلاح القوة المعنوية والايمان الوطيد .

فقد ولدت جان دارك والاحتلال الانجليزى منشب أظفاره فى عنق فرنسا التى كانت قد أنهكتها الحروب ومزقتها الفتن والمنازعات الداخلية ، وكان شارل السادس ملك فرنسا رجلا ضعيف الهمة ضعيف العقل فارتبط مع هنرى الخامس ملك انجلترا ، بمعاهدة تروى سنة ١٤٢٠ ، وبين بنود هذه المعاهدة أن يتزوج ملك انجلترا بأميرة فرنسية معينة ، وانه اذا مات شارل السادس دون أن يترك وارثا شرعيا آل عرش فرنسا بعده الى ملك الانجليز ، وواضح ان نصا كهذا يفتح باب الدسائس والمؤامرات ليتخلص الانجليز من ولى العهد اذ ذاك « الدوفان » الذى لم يكن أوفر حظا فى الشجاعة أو العقل من أبيه ، فلم تكد المنية تعاجل شارل

السادس بعد توقيع هذه المعاهدة المشئومة حتى استكتب الانجليز الملكة المستهترة ايزابيلا ان ولى العهد ليس ابنا شرعيا لها ، وبهذه الوثيقة المخزية استباح الانجليز أن يضموا عرش فرنسا الى ملكهم الطفل هنرى السادس مستندين الى ما نصت عليه معاهدة تروى ، فلما حاول ولى العهد على ضعفه أن يسترد حقه المغصوب شتت الانجليز شمل عسكره الواهن المتخاذل ، وهزموه شر هزيمة فى موقعة فرناى سنة ١٣٢٤ ، فارتد الى أورليان ، واحتمى فى حصونها الحصينة فاقد الامل والرجاء .

وكانت انباء هذه الدسائس والوقائع والهزائم تصل قرية دومريمى فتقابل بأشد مظاهر الاهتمام المقرون بالالم والاسى ، فقد كان أهلها من أكثر الناس حماسة وانتصارا لولى العهد « الدوفان » المغلوب على أمره ، بينما كان سائر الاهلين من سكان القرى المحيطة بها يؤيدون دوق برجندى الذى كان يناصر ملك الانجليز ويمالئه طمعا فى أن يظفر بعرش البلاد بعد موت شارل السادس ، جزاء تلك الممالأة الآثمة ، ولم تكن هذه الشئون السياسية والحربية شغل الرجال والشيوخ وحدهم من أهل دومريمى ، بل كان الاطفال أنفسهم يتلقونها فى مثل لهفة الرجال وجزعهم وكانما كانت نفوسهم تتغذى بلبان الوطنية والثورة بينما تتغذى أجسامهم بلبان الامهات .

فى هذه الظروف العصيبة ، وفى هذا الجو المكهرب ، وفى هذه البيئة المثيرة ، ولدت جان دارك وترعرعت ، ولكنها ما كانت لتحقق مكانتها العالية فى عالم البطولة لو لم تنفرد دون أبناء القرية وبناتها ، بل دون مثيلاتها فى العالم أجمع بظواهر نادرة أعانتها على أن تشق طريقها

الى الخلود ، وابرز هذه الظواهر وأبعدها أثرا فى حياتها من غير شك ظاهرتان : أولاهما ، تلك الظاهرة التى حيرت المؤرخين فاختلفوا اشد الخلاف فى تعليلها وفى محاولة تفسيرها ، وسيظلون على خلافهم ما دام فى العالم أناس يؤمنون بالوحى وآخرون ينكرونه ، وما دام فى العالم قوم يعتقدون بالروحانيات ، وقوم يجحدون كل شىء سوى المادة والماديات ، ونعنى بتلك الظاهرة هذا الاتصال الذى كان بين جان دارك وبين «أصوات» القديسات ، فقد كانت فى منتصف عامها الثالث عشر حين كثر صمتها وطال تفكيرها واشتد شغفها بالعزلة ،

حتى اذا كانت ترعى غنم ابيها ذات يوم آوت الى شجرة فى الغابة ، وبينا هى فى تفكيرها ، تستعرض ما آلت اليه حال بلادها من احتلال واذلال ، وما انتهى اليه مصير الوارث الشرعى للعرش من ضعف وهوان ، اذا بالشجر يشتد حفيف أوراقه، واذا بالطيور تتجمع مغردة مبتهجة ، فلم تكد جان دارك ترفع بصرها الى أعلى الشجرة حتى شاهدت نورا يهبط عليها من السماء ، ويغمرها من كل جانب ، ثم تبينت صوتا يهتف بها :

« جان ، جان ، لا تخافى ، كونى ابنة بارة ، فستذهبين لنجدة ملك فرنسا » ، فلما أنعمت النظر فى مصدر الصوت رأت ان التى تخاطبها هى القديسة كاترين ، وبجوارها القديسة مرجريت ، وقد ظلتا تناديانها مرة فى كل يومين أو ثلاثة ، وهى تسمعهما وتتحدث اليهما كما تحدث أمها وأبيها ، ولكنها كتمت الامر أقصى التكتم ثلاثة أعوام كاملة أو تزيد ، طوعا لمشورة « الاصوات » على حد تسميتها للقديستين، والقديسين الآخرين اللذين كانا يظهران لها ويوحيان اليها ، فتنقاد لوحيهم وتصدع بأمرهم ، لا تنى ولا تتردد ، ولا تعبأ

بخطر ينتظرها أو حائل يصدها عن سبيل الطاعة العمياء لهؤلاء القديسين .

فاما ان جان كانت صادقة فيما روت عن ظهور « الاصوات » وكانت مخلصة فى اعتقادها ان القديسات يهبطن من السماء لمحادثتها وهى فى خلوتها ٠٠والايحاء اليها بالاستعداد لمواجهة المهمة الخطيرة التى ستلقى على عاتقها ، ثم الايحاء اليها بالخطوات التى تتخذها يوما بعد يوم فى أيام كفاحها ــ فذلك ما لاسبيل الى الشك فيه ، مهما يكن وجه التفسير الذى يلتمسه الانسان تعليلا لهذه الظاهرة ، وانما يتجلى الخلاف على اشده فى تكييف الطريقة التى نشأت بها هذه الظاهرة .

فالعامة والمتدينون من الدهماء يعتقدون ان نزول القديسات لمحادثة « عذراء أورليان » حقيقة لا تقبل الشك ولا الجدال ، وان التفسير الوحيد الذى يقبلونه هو ان الله اختص جان دارك بهذه المعجزة ليتم على يديها تخليص الوطن من عبودية الاحتلال .

والخاصة الذين يؤمنون بعلم الارواح ، يفسرون هذه الظاهرة بأن ارواح القديسين قد هبطت حقيقة على الفتاة ، على صورة من الصور ، وذلك « لامكان ظهور كائنات روحانية لبعض المستعدين لرؤيتها ، تخاطبهم أو تظل ملازمة الصمت العميق ... ومن تلك الارواح الصامتة ما كان يراه نابليون الاول من الشبح الذى كان يلازمه ، ومن الروح المتكلمة التى كانت تظهر لشيخ الفلسفة اليونانية « سقراط » الحكيم وقد صرح هو بذلك ، واثبتها له تلميذه « افلاطون » ونقل ذلك عنه جميع كتاب تاريخه من الغربيين » .

والمؤمنون بنظرية العقل الباطن يرون ان هذه

« الاصوات » صورة منتزعة من شخصية جان دارك الباطنة ، تلك الشخصية التي تتكون في كل انسان دون أن تخضع للعقل الواعي وتتكيف بالبيئة وما توحي الى أعماق النفس من مخاوف وآلام وآمال .

وأصحاب نظرية فرويد يرجعون بهذه الظاهرة على قداستها ، كما يريدون أن يرجعوا بكل ما يصدر عن الانسان من تصرفات الى الغريزة الجنسية ! ..

وجورج برنارد شو يلتمس لهذه الظاهرة تعليلا يقوم على ان لبعض الناس قدرة خاصة على تصور الاشياء تصورا يكاد يجسمها لهم وهي غير موجودة ، ومن ذلك ان قوما يستطيعون أن يرسموا على صفحات أذهانهم أرقاما عدة يضربون بعضها في بعض ويطرحون بعضها من بعض ، ثم يجمعون ويقسمون ، وهكذا كأنما يشاهدونها في لوح مكتوب ، وقد كانت جان دارك من أصحاب هذه القدرة الخارقة في ناحية أخرى ، هي تصور أشخاص القديسين وقد تجسموا أمامها تجسما وراحوا يخاطبونها ويناقشونها ! ..

على ان اختلاف هذه التعليلات كلها لا ينقض حقيقة هي وحدها الجوهر في هذا المقام ، وهي أن جان دارك كانت تؤمن بأنها ترى بالفعل شخوصا لا يختلفون عن شخوص الآدميين ، وكانت تخاطبهم وتستمع اليهم ، باعتبارهم قديسين ، وبوحي هؤلاء القديسين نهضت بالعبء الثقيل الذي قدر لها أن تنهض به .

ننتقل من هذا الى الظاهرة الثانية التي قدمنا انها احدى اثنتين كان لهما أعظم الاثر فيما بلغت جان دارك من مجد وخلود ، وهذه الظاهرة هي طغيان جانب عظيم من روح « الرجولة » عليها وتغلبها على حركاتها وتصرفاتها حتى في سن الطفولة ، فانه ليؤثر عنها انها

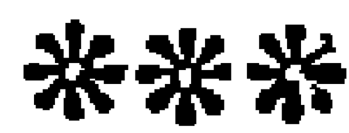
كانت منذ طفولتها مشغوفة بحياة الجندية ، ويظهر ان اباها لاحظ عليها ذلك أو سمع عنها حديثا يدل عليه أو هو قد رآها فى المنام بلباس الجند ، فما كان منه الا أن حذرها من مغبة الاندفاع فى هذا السبيل وهددها على نحو ما يفعل بعض الآباء مع أطفالهم ، بأنه سيبادر الى القائها فى اليم لتموت غرقا اذا هى حاولت مخالطة الجند ومشاركتهم فى مهنتهم الخشنة التى لم تخلق للنساء ، وواضح ان هذه النزعة لم تفارق جان دارك تحت ضغط هذا التهديد الذى ربما فعل فعله وهى طفلة ناعمة الاظفار ، فلما تخطت مرحلة الطفولة لم تعبأ به ولم تأبه له ..

ومن الثابت عن جان دارك انها كانت شجاعة الى حد مجابهة الخطر الذى يكاد يكون محققا ، غير هيابة ولا مترددة ، على نحو ما فعلت يوم لقيت مجنونا هائجا على وجهه يحمل فى يده « بلطة » مرفوعة للقتل ، فانتزعت منه « البلطة » وهى رابطة الجاش ، واقتادته من يده الى المدينة حيث أعيد الى الاسر الذى فر منه ، وليست هذه الشجاعة الخارقة مما يؤثر عادة عن النساء ..

وينطوى تحت هذا المعنى ما هو ثابت كذلك من ان جان دارك ظلت ترى « الاصوات » وتتحدث اليها مرتين أو ثلاثا فى اليوم الواحد ثلاثة أعوام كاملة دون أن تطلع على هذا السر واحدا من الناس ، كائنة ما كانت صلتها به وثقتها فيه ، وعندى ان ذلك من أدل الظواهر على تغلب روح الرجولة على نفسها ، فلم يكن كتمان السر يوما صفة معروفة من صفات النساء ! ..

أضف الى هذا كله عزيمة ماضية تندر حتى فى الرجال ، ولولا هذه الصفات التى تجتمع كلها تحت

معنى واحد هو « روح الرجولة » لما تمت رسالة جان، ولبقى اتصالها « بالاصوات » ضربا من الرؤى ونوعا من المحاورات الافلاطونية التى لا تقدم فى عالم الواقع ولا تؤخر ..



وبعد سنوات ثلاث من اتصال « الاصوات » بجان دارك ، تلقت أول أمر منها بأن تسرع فى العمل لتنفيذ الرسالة التى خصتها بها العناية الالهية ، فذهبت طوعا بمشورة « الاصوات» الى حاكم «فوكولير» ، واستعانت على مغادرة دار أبويها للسفر الى مقر الحاكم بقريب لأمها يسمى « دوران لاكسار » جاء يدعي بايحاء جان أن زوجته مريضة تحتاج الى من يعنى بها ويرجـــو أن يسمح له بأن يصطحب جان الى بيته لهذا الغرض ، وذهبت جان لمقابلة الحاكم « روبير دى بودريكور » بعد أن أفضت لخالها بمكنون سرها ، فلما أذن لها طلبت اليه فى سذاجة واصرار ان يبعث الى « الدوفان » ولى العهد ، بنصيحة خالصة فى أن يصبر ولا يقاتل عدوه الى أن يمده الله بعون من عنده ، وطلبت أن يرســـلها الحاكم الى « الدوفان » بعد ذلك ومعها حرس مسلح، لانها تريد أن يعهد اليها ولى العهد بقيادة جيشه وبذلك تنفذ ما أمرت به من اجلاء الانجليز عن بلادها وتتويج ملـكها فى كنيسة رامس ! .. وقالت جان : ان مولاها رب السماوات والارض هو الذى عهد أليها بهذه المهمة الخطيرة ! ..

وكان طبيعيا أن يقابل الحاكم هــذا الـكلام من فتاة فى الســابعة عشرة من عمرها مقــابلة ملؤها السخرية والاستخفاف ، فأوصى قريبها بأن يضربها « علقـــة » طيبة تردها عن هذا الهذيان ! ..

ولـكن الخبر انتشر وذاع ، ولا بد أن تكون قـد أضيفت اليه الحواشي والزيادات التى تلحق بكل خبر تتناقله الالسن وتتبادله المجالس ، فـكثير بين العوام الاوساط في تلك القـرون المظلمة آمنوا برسـالة الفتاة ايمانا لا يرقى اليه الشك أو الجدل ، وسـاعد على انتشار هذه الموجة من الايمان بالفتاة ما كان يرويه العامة من ان عرافه تدعى « مرلان » منذ ثلثمائة سـنة تنبأت بأن فرنسا ستضيعها امرأة وتستردها فتاة من اللورين ، فقالوا : ان الشطر الاول من النبوءة قد تحقق بما فعلت ايزابيل التى أنكرت شرعية ولى العهد ، ولابد أن تكون جان دارك فتاة اللورين هي المقصودة بالشطر التالى من نبوءة العرافة ، وبينما حاكم « فوكولير » باق على عقيدته فى الفتاة ، معرض عن الاصغاء الى أقاصيصها ساق القدر اليهـا فتى من الاشراف يدعى « جان دى متز » آمن برسالتها ووعد بمرافقتها الى الملك أو على الاصح ولى العهد ، ولـكنها رفضت أن تتخطى مشوره « الاصـوات » التى أمرتها بأن تذهب الى حاكم « فوكولير » وتأخذ معها حرسا مسلحا ، ثم تذهب لمقابلة الملك ومعها كتاب من الحاكم ، فما زالت على الحاحها حتى كان يوم السبت ١٢ فبراير سنة ١٤٢٩ ، اذ قصدت الى الحـاكم وأخبـرته فى لهجة الغضـب المقرون بالالم والاسف ، بأن تعطيلها عن مهمتها قد أدى الى هزيمة جيوش « الدوفان » قرب أورليـان وانها علمت نبأ هذه الهزيمة من « أصواتها » ، ورأى الرجل هنا فرصة طيبة لامتحان الفتاة وتفنيد دعواها بأن يقدم لها ما تريد اذا صح ما أنبأتها به « الاصـوات » من هزيمة جيوش الملك ، فلما وصل الحاكم بعد أسبوع نبأ هزيمة الجيوش فى نفس اليوم الذى حضرت فيه

الفتاة ذهب الى بيتها وقد أخذ معه قسيسا يفحص روح جان لعلها تخضع لشيطان من الشياطين !

وبعد أن اقتنع الحاكم بنتيجة « الفحص » أمد الفتاة بما أرادت من قوة ، وزودها بخطاب منه الى الملك ، فبدأت جان رحلتها تحت جنح الليل مرتدية زى الرجال ومعها حرسها وخدمها ، وعدتهم جميعا خمسة وعشرون ، وما زالت تختار المسالك الوعرة المنزوية ، وتؤثر السرى دون سفر النهار تخفيا عن عيون الاعداء حتى وصلت الى مقر ولى العهد ، وكان ذلك فى ٦ مارس سنة ١٤٢٩ ، بعد مسيرة عشرة أيام لم تسلم فيها من المؤامرات ومناوشات الاعداء .

وقد حاولت بطانة الدس والسوء التى كانت تحيط بالملك اذ ذاك أن تحول بين جان دارك وبين الظفر بلقائه فأوفدت تلك البطانة أربعة من القساوسة جاءوها فى الفندق الذى نزلت فيه يطلبون أن تسلمهم الرسالة التى تقول أنها تحملها الى الملك ، ولكنها ردتهم بكل ثبات وهدوء قائلة : انها رسالة للملك وحده ، فلا بد من أن تسلم اليه بشخصه ، وتمت المقابلة بعد يومين اثنين ، وقد حاولوا أن يضللوا الفتاة اختبارا لحقيقة رسالتها فأجلسوا مكان الملك شخصا آخر ، وألبسوا الملك شارل لباسا عاديا لا ينم عن حقيقته ، فلما دخلت جان دارك أثارت دهشة الحاضرين بتجاوزها كرسى الملك والجالس عليه ، واتجاهها الى شارل مخاطبة اياه بلقب الملك فى يقين وثبات ، حتى اذا حاول شارل أن يوهمها بأن الملك هو الذى يجلس على العرش لم تنهض من ركوعها أمامه وردت قائلة : « باسم الله مولاى ، بل الملك أنت ، ولا أحد غيرك ، أعطنى الجند أنقذ أورليان ، واذهب بك الى رامس حيث نمسح

بالزيت المقدس وتضع التاج على مفرقك ، وفق مشيئة الله ... » وبعد ان أسرت جان دارك فى اذن الملك شيئا ، نالت مواساته ورضاه ، ثم اقامت بأمر خاص منه فى برج يدعى برج « كوداري » تنتظر بصبر نافذ ساعة العمل الحاسم السريع .

بيد ان بطانة الملك أطلقت فى هذه اللحظة سهما آخر من سهامها المسمومه ، وأخذت تلقى فى روع الملك الضعيف المتردد بذور الشك فى أمر جان دارك ، حتى اقتنع بارسال الفتاه الى بواتييه لفحصها والتأكد من انها لا تصدر فى أفعالها عن الشياطين ! .. فلم تضق جان دارك بوابل أسئلتهم التى لا تكاد تنتهى ، وهى تجيب فى صراحه قاطعه ، وشجاعة فائقه ، وبديهه حاضرة نادره ، فاذا سألوها : كيف تحتاج الى جنود مع ان الله قادر على كل شيء ، وفى استطاعته سبحانه وتعالى أن يجلى الانجليز عن فرنسا بغير جنود ؟ .. لم تدخل معهم فى مناقشات دينية حول القدرة الالهية ، وكيف انها لا تتعلق بالمستحيل ، ولكنها تجيبهم فى سخرية قوامها الحقيقة المرة ، قائلة : ان الله يعين من يعين نفسه ، فعلى الفرنسيين أن ينهضوا بأعباء الحرب ، والله يمدهم بنصره ! ..

وينتهى التحقيق والفحص بانتصار جان دارك واعلان القضاة بالاجماع انها « مؤمنة ، صادقة الايمان ، كاثوليكية ، سليمة العقيدة ، ليس فى شخصها ولا قولها ما يناقض الدين ، وواجب على الملك أن يقبل عونها ، لان فى رفضه حرمانا لنفسه من عون الله ! »

وعادت فى الوقت عينه بعثة الرهبان الذين كانوا قد أوفدوا الى « دومريمى » للبحث عن نشأة الفتاة وتقصى سيرتها ، فجاءت نتيجة هذا البحث قاطعة بأن جان دارك

منذ مولدها الى أن وصلت شنون ، طاهرة ، شريفة ، لا يعلق بسمعتها ولا خلقها أدنى شك أو افتراء .

وعلى ذلك أصدر الملك أمرا بتعيين جان دارك قائدا عاما للجيوش الفرنسية ، واعداد العدة الحربية لمسيرها الى أورليان ، وانقاذها من بين براثن العدو الذى يحاصرها منذ ستة أشهر كاملة ، أقام فى أثنائها الحصون وأرسل يطلب مددا يضاعف من قوته استعدادا لالتهام أورليان لقمة مستساغة ، وقبل أن تبدأ جان دارك طريقها الى الميدان ، أملت بلاغا الى الجنود الانجليز تقول فيه :

« باسم الله آمركم بالعودة الى بلادكم ، فان لم
« تفعلوا فحذار من العذراء ، وستعلمون فى القريب »
« العاجل أى أذى ستنزله بكم ، خذوها كلمة »
« صادقة منى : انكم لن تأخذوا فرنسا التى »
« أمرها لملك السماء ، وانما سيحتفظ بها شارل ! »

وأرسلت جان دارك الى قواد الانجليز سفولك ، وتالبوت الجبار ، وسيكلز ، وغيرهم تقول :

« أجيبوا على هذا بأنكم قبلتم الصلح فى مدينة »
« أورليان فان لم تفعلوا فلكم الويل والثبور ! »

وقد علق المحامى الانجليزى المشهور السير جون مكدونل على هاتين الرسالتين وعلى الرسالة الثالثة الى الوصى على ملك الانجليز ، فقال : انه ليس عجيبا أن لا يعبأ بهذه الرسائل أحد من القواد الانجليز ، ولكن العجيب حقا هو ما تدل عليه من مبلغ ما كان لهذه الفتاة الساذجة ، وعمرها سبعة عشر عاما من سلطان هائل على العظماء ورجال الدين والجنود والمحنكين من رجال السياسة ، الذين وافقوها على ارسال هذه الخطابات الطافحة بالغطرسة والعجرفة ، وفى ذلك ما

يدل دلالة كبيرة على مبلغ ارتفاع شـــأنها وعلو قدرها بل فيه ما يدل أقوى من كل الشهادات التى لدينا على مبلغ ما كان لها من محبة فى نفوس العامة ، وما كان لها من احترام ورهبة فى نظر الجنود .

لم يعبأ الانجليز بهذا التهديد « الصبيانى » فسارت جان دارك الى « أورليان » ودخلتها فى ٢٩ ابريل سنة ١٤٢٩ ، بين مظاهر الابتهاج التى يندر نظيرها على مر الزمان ، وفى الغداة عاودت انذارها للانجليز أن يجلوا عن وطنها ، فلم يكن جوابهم سوى أن أشاروا عليها فى سخرية ان تعود هى الى قريتها ترعى الغنم لانهم اذا ظفروا بها سيصلونها عذاب السعير ! . .

ازاء هذا لم يسع جان سوى أن تبدأ عملها الخطير ، فسارت الى الميدان ، وافتتحت سلســلة انتصــاراتها بالاستيلاء على حصن سان لو ، وما زالت جيوشـها تتقدم الى النصر من قلعة الى قلعة ، وتبث فيهم من ايمانها الالهى بالفوز المبين ، وتوقع فى صفوف الانجليز الرعب بشجاعتها الخارقة ، حتى استولت على قلعتى سان جون وأوجستيان ، ثم دان لها حصن «لىتوريل» بعد معركة جرحت فيها وسـقطت تبكى والفرنسيون يقاتلون عنها الانجليز الذين رأوا فى جرحها فرصـة للظفر «بالساحرة الملعونة» التى أنزلت بهم شر الهزائم .

فلما وقفت رحى المعركة نهضت جان دارك قبيــل المساء وتقــدمت جنــدها وهى جريح الى الحصن ، فاستولت عليه وفر من كان فيه من الانجليز وغرق منهم كثيرون ، وفى فجر اليوم التالى ٩ مايو سنة ١٤٢٩ ، سحب الانجليز فلولهم مرتدين عن أورليــان ، تاركين ذخائرهم ومدافعهم نهبا لأهــل أورليـــان الذين انقلب همهم عيدا دونه كل الاعياد .

وسارت جان دارك فى ١٠ مايو الى تورز مقر الملك ، حيث استقبلها الشعب استقبال أعظم الابطال ، وخف الملك الى لقائها أحسن اللقاء ، ورفعها هى وأهلها الى مصاف النبلاء ، وراحت هى تلح عليه أن يطرح جانبا مشورة حاشيته الخائنة ، ويصغى الى توسلها فيذهب معها الى رامس حيث يتوج ملكا على فرنسا ويمسح عليه بالزيت المقدس ، فلم يستجب الى ندائها الا بعد شهر من دخولها أورليان ، فتقدمت جان دارك بجنودها وبددت شمل الجيوش الانجليزية فى الطريق الى رامس، وأسرت قائدهم سافولك نفسه ، وردت قائدهم الآخر تالبوت على أعقابه لائذا بأذيال الفرار ، ثم أسرته وعادت به الى أورليان ! .. ثم بدأت جان دارك رحلتها مع الملك الى رامس بجيش عتيد بعدده وروحه المعنوية . فلم تلق مقاومة تذكر من فلول الجيوش الانجليزية ، واحتفل بتتويج الملك ومسح رأسه بالزيت كما أرادت جان دارك اذعانا « لاصواتها » .

الى هنا كانت رسالة جان دارك قد تمت ، وكان عليها ما دامت قد نفذت مشيئة « أصواتها » وعملت بوحيها ، أن تعود الى بلدها ، مكرمة مبجلة فى الحياة والممات ، ولكنها بقيت ـ لأمر ما ـ دون استشارة أصواتها ، واستصدرت من الملك امرا بالزحف على باريس ، فسارت هى على رأس الجيش ومعها الملك نفسه ومستشاره الخائن « لاتريموى » ، ولكن ضعف الملك ووقوعه فى حبائل الدس التى نصبها له مستشاره، جعلاه يعقد مع دوق برجندى هدنة لمدة خمسة عشر يوما تسلم له باريس على أثر انقضائها بغير ما حرب ونضال ، فلم يسع جان دارك الا أن تقبل على مضض ما قبله ملكها حتى لا تعرض كلمته وكرامته للمهانة ،

فلما انتهت مده الهدنة اصدرت جان دارك امرها باستئناف الزحف على باريس وتخلف الملك عنها ، لفرط جبنه وخور عزيمته ، وسارت هى وحدها على راس الجيش حتى بلغت سان دينى فى ٢٦ أغسطس سنة ١٤٢٩ ، وهناك أرسلت تلمح على الملك فى موافاتها الى هذا الموقع ، واضطرت الى انتظاره هناك حتى وصل بعد أسبوعين ، فكان هذا التأخير كسبا للوقت استغله الانجليز فى تقوية أنفسهم وتجديد نشاطهم ، فلما استؤنف القتال عند سان أونوريه سقطت جان دارك جريحة ، وحملها زميلاها القائدان المخلصان دالنسون وجانكور بعيدا عن المعركة خوفا على حياتها ، وارادت هى فى اليوم التالى استئناف القتال رغم جرحها ، فاذا الملك قد انصاع من جديد لمكائد مستشاره لاتريموى ووقع هدنة أخرى يرتد بمقتضاها الى الوراء فى مقابل وعود عابثة ، فوقع ذلك من نفس جان دارك اسوأ وقع ، وطلبت الى الملك اعفاءها من أعباء القيادة العامة ، فأبى عليها ذلك بحجة ان الهدنة لاتمنع الانتفاع بخدماتها فى ميادين غير التى نص عليها فى الشروط .

ولم تكن « الاصوات » قد انقطعت عن الاتصال بجان دارك ، وان لم تكن هى التى أوحت اليها بما كان منها بعد التتويج ، فأشارت عليها فى هذا الموقف بأن تبقى فى سان دينى ، ولكن الملك ابى عليها الا أن ترافقه ، ولم تكن تستطيع المقاومة وهى جريح اذا احتاج الامر الى أن تقاوم بالقوة ، فلم يسعها سوى الانصياع لأمر الملك ومخالفة « أصواتها » لاول مرة مخالفة صريحة .

ولكن جان دارك لم تطق صبرا على خطة الملك الذى كان قد سرح الجيش ، وانصرفت حاشيته الى اللهو والعبث ، فقررت أن تقاتل العدو بفرق من المتطوعين ،

وانضم اليها فى ذلك صديقها القائد دالنسون ، وكأنما طرأ على جان دارك شيء من الشك فى نجاح هذه الحملات المرتجلة على الاعداء ، فجاءتها « الاصوات » مصدقة لما فى صدرها من وساوس ، واخبرتها فى ابريل سنة ١٤٣٠ ، بأنها ستقع فى الاسر قبيل عيد القديس يوحنا وعليها أن تتقبل هذه المحنة بالرضا ، والثقة فى عون الله ..

وصحت النبوءة وأسرت جان دارك على مقربة من « كومبين » فى الموعد الذى ضربته « الاصوات » ، وقد ظل « جين دى لوكسمبرج » أياما ينتظر فداءها من شارل السابع ولكن شارل تركها معرضا عن صيحة أستاذه فى طفولته « جاك جيلو » الا يدخر جهدا فى سبيل انقاذها ، فلما اتصل نبأ أسرها بالانجليز دقوا النواقيس وأقاموا الصلوات ابتهاجا بنجاتهم منها ، وارسلوا صنيعتهم « كوشون » أسقف «بوفيه» يساوم جين دى لوكسمبرج على شرائها ، فنجح فى مهمته وابتاعها بثمن قدره عشرة آلاف من الجنيهات ، جمعها الانجليز من الفرنسيين انفسهم ! .. وعندئذ حاولت جان دارك الانتحار بالقاء نفسها من نافذة قلعة بوريفوار ، وقد نفذت هذه المحاولة رغم نصيحة « الاصوات » لها بألا تفعل ، وكانت النافذة على ارتفاع ستين قدما من سطح الارض فسقطت المسكينة فاقدة الرشد ، وأعادوها الى غرفتها بالقلعة حيث استردت صحتها بعد أيام .

ونقلت جان دارك بعد ذلك من قلعة الى قلعة أسيرة فى أيدى الانجليز ، حتى القيت آخر الامر فى روان بقلعة «فيليب أوجست» مكبلة بالاغلال ، مصفدة بالسلاسل

فى عنقها ووسطها ، محبوسة فى قفص من الحديد خمسة اشهر كاملة ..

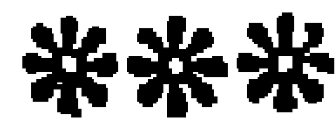
***

قدمت جان‌دارك بعد ذلك الى المحاكمة ، أمام احدى محاكم التفتيش الدينية ، بتهمة الالحاد ، والزندقة ، والسحر ، والارتداد ، ونحو ذلك من التهم الملفقة التى اخترعها الانجليز ، وعهدوا الى صنائعهم من المرتشين وذوى المطامع ومرضى النفوس « بتكييف » كل تهمة منها مهما يكلفوا أنفسهم من شطط وعسف وعدوان ، وواجهت جان دارك ، وهى فتاة لم تتم عامها التاسع عشر ، هيئة من رجال الدين وأعوانهم ، بلغ عددها نحو خمسة وتسعين شخصا ، وقد انتهت هذه المحاكمة الاولى بالحكم على جان دارك ، بعد جلسات مرهقة طويلة ، بالسجن المؤبد ، وهو أقصى حكم يبيحه قانون الكنيسة اذا أعلن المتهم خضوعه وتسليمه ، وهو ما فعلت جان دارك فى اللحظة الاخيرة بعد أن أخذ منها الارهاق كل مأخذ ..

وكانت بعد ذلك مهزلة ابدال هذا الحكم بحكم الاعدام حرقا ، بدعوى ان جان دارك نكثت بعهدها بعدم العودة الى ارتداء زى الرجال ، والحق الذى لايخفى هو ان الاعدام كان أقل حكم يرضاه الانجليز لجان دارك ، وقد صرحوا بذلك قبل صدور الحكم وهاج هائجهم حين حسبوا حكم السجن المؤبد نهائيا ، فلو لم تكن جان‌دارك قد عادت الى زى الرجال لما عدموا ألف سبب وسبب لاشباع شهوتهم الى الانتقام من خصيمتهم الشريفة ، على أفظع الصور وأبعدها عن العدل والرحمة والانسانية

وغنى عن البيان ان هذه المحاكمة رغم مظهرها الدينى كانت محاكمة سياسية من الالف الى الياء ، وأنها

بحذافيرها من تدبير الانجليز ، ومن مفضوح المغالطات أن يحاول رجل مثل برنارد شو أن يثبت ان السياسة لم تتطرق الى هذه المحاكمة فى قليل ولا كثير ! وأمعن فى المغالطة والتبجح أن يختتم اللورد بركنهد الفصل الذى عقده عنها فى كتابه « أشهر المحاكمات » بقوله : ان مصرع جان دارك سيظل الى الابد وصمة فى جبين الفرنسيين ! . .



وقد درست قضية جان دارك من جديد فى سنة ١٤٤٩ ، وبعد ست سنوات ونيف بدىء نظرها أمام محكمة دينية فى كنيسة نوتردام ، بناء على التماس من امها التى كانت بلغت السادسة والسبعين من عمرها ، وفى ٧ يوليو سنة ١٤٥٦ ، قررت المحكمة اعتبار التهم التى بنى عليها الحكم الاول باطلة ، واعتبار المحكوم عليها فى عداد الشهيدات ، وفى سنة ١٩٢٠ ، أى بعد اكثر من أربعة قرون ونصف قرن على هذا الحكم ، اعلنت الكنيسة قداسة « عذراء أورليان » .

فهرس

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.



هذا الكتاب

مؤلف هذا الكتاب من الصحفيين العرب الاحرار الــذين ظلوا يناضلون في سبيل الحرية ومكافحة الاستعمار ونشر الوعي بين المواطنين في نزاهة وشجاعة وجراة حتى فاجاته المنية وهو يقوم بمهمة صحفية في احد الاقطار الشقيقة •

والفصول التي يتناولها هذا الكتاب تمثل الصــدى العميق الـذى تركته في نفس المؤلف سير مجموعة من الإبطال الذين وقفوا حياتهم - او الشطر الاكبر منها - على الجهاد الذى لا يهدا لتحرير اوطانهم ، واذكاء شعلة الحرية في نفوس مواطنيهم ، ومواجهة قوى السيطرة والطغيان التي فرضت نفسها على بلادهم - ولم يكن من المصادفة ، ولا كان من العجب ، أن يدفع هؤلاء الإبطال الاحرار ثمنا غاليا وصل في بعض الاحيان الى بذل ارواحهم رخيصة في سبيل اداء الواجب المحبب الى قلوبهم فلقوا ربهم في غرف المعارك على أيدي الطغــاة القساة الذين اذاقوا البشرية من اقدم العصور حتى اليوم الوانا شتى من الهوان والعذاب •

وعلى الرغم من انقضاء سنوات على كتابة هذه الفصول ، وعلى صدور الطبعة الاولى من هذا الكتاب ، فان القارىء سيجد متعة كبيرة في مشاركة المؤلف احاسيسه والافادة من تجاربه وقراءاته ودراساته عن هؤلاء الابطال الاحرار الخالدين •

١٠ قــروش